

الإنسان في القرآن الكريم

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو على كل شيء قدير . والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والرسل وعلى آله وأتباعه البررة إلى يوم الدين وبعد :

فإن الإنسان أكرم المخلوقات هو جذع الكون ، ومحل التكليف أو الأمانة الإلهية ، ومرتكز الاعتقاد السديد بالله عز وجل ، تعهده الله تعالى برعايته وعنايته ، وفضله وإحسانه ، وجعله أداة تعمير الأرض واكتشاف خزائنها .

ولا نجد مثل القرآن الكريم مكرماً دائماً للإنسان ، فكان جديراً بالبحث فيه ، وأن يبادر هذا الإنسان لمعرفة خالقه والمنعم عليه ، وأن يظل عابداً لله محسناً غير مسيء . فإن أحسن فهو الواجب عليه ، وإن أساء فإساءته على نفسه .

والإنسان أيضاً جذع شجرة وارفة الأغصان ، زاهية الألوان ، طيبة الثمار ، وشعاب البحث فيه ثلاث :

- الإنسان في القرآن الكريم بصفة عامة .
- الإنسان في القرآن الكريم بمنظور رسائل النور للداعية سعيد النورسي .

- حقوق الإنسان بين العالمية والخصوصيات الثقافية (التصور الإسلامي) .

تتناول هذه الشعاب مسحاً شاملاً لخلق الإنسان واستخلافه وخصائصه ، وهذه هي الشعبة الأولى ، كما تتناول تكوينه الاعتقادي وتحليل مرتكزات العقيدة الحققة في شغاف قلبه ، وأدق خلجات مشاعره ، وملء حواسه وأعضائه ، وهذه هي الشعبة الثانية ، ثم تأتي الشعبة الثالثة لمعرفة حقوق الإنسان من الناحية الدولية أو العالمية ، فكان البحث مفيداً جداً ، وكل من هذه الشعاب قدّم لمؤتمرات ثلاثة : أولها لمؤتمر الأطباء في دمشق ١٩٨٩ ، والثانية لمؤتمر دولي في إستانبول عام ٢٠٠٠ م ، والثالثة لندوة في باريس أواخر عام ١٩٩٩ م .

* * *

الإنسان في القرآن الكريم بصفة عامة

القسم الأول - مكانة الإنسان :

احتلت مكانة الإنسان في القرآن المجيد المنزلة الأولى من بين سائر مخلوقات الله في كونه ، فهو مستودع الأسرار الإلهية ، وموضع الأمانة والتكليف الرباني الدال على العناية والتكريم ، ومهبط الوحي الإلهي الذي يضع نظام البشرية الأصلى ومنهاجها الأسلم ، وهو الذي ارتضاه خالقه لأن يكون أميناً مسؤولاً عن إعمار الكون وتقديم الحياة الأرضية الدنيوية ، وهو بالتالي وارث الجنان وأرض الله الطيبة المباركة الخالدة إذا استقام على أوامر الله تعالى ، والتزم طاعة الله عز وجل ، وحقق الهدف المنشود من وجوده ، وأدى الرسالة المنوطة بعنقه .

لهذا فلا غرابة أن نجد الإنسان هو المبدأ والمنتهى في الحياة الدنيا الهادئة حيناً ، والصاخبة المضطربة حيناً آخر ، وأن يكون هو مدار التشريع الإلهي والتنزيل القرآني ، ومحور العناية الربانية لإيجاد الإنسان المثالي وتكوين المجتمع الفاضل .

ومن أجل الوصول بالإنسان إلى شاطئ الأمن والسلام ، وتحقيق الغايات والأهداف الكبرى ، والمقاصد التشريعية ، تولى القرآن الكريم تربيته ، مرة باللين والحكمة والموعظة الحسنة ، وتنبه العقل البشري ، وإيقاظ النفس والضمير ، وإطلاق حرية الإنسان ، وتخليص

أسره من ربة التقليد الأعمى ، وإعمال فكره في ذخائر الكون ، للإفادة والاستفادة ، وتحقيق معالم التقدم والرخاء والرفاه ، مرة بالمعالجة والمجاهدة للأهواء والشهوات ، وتارة باللوم والتعنيف والزجر والتوبيخ ، وأحياناً أخرى بالتهديد والوعيد والترهيب والإنذار والتحذير من العقوبة الرادعة الزاجرة له إما في الدنيا ، وإما في مصيره الحتمي في الآخرة .

وأريد من بحثي هذا أن أضع التصور الإجمالي لحقيقة الإنسان ، وأوضح معالم طريقه ، وأحلل نفسيته العظيمة الخطيرة التي انطوى فيها العالم الأكبر ، كما قال ابن عربي :

أتزعم أنك جِزْم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
الله والكون والإنسان :

لم يرسل الله تعالى الرسل والأنبياء ، ولم يهيئ في كل زمان القادة المصلحين ، ولم ينزل الكتب السماوية المشتملة على صحيفة الكون ، ولم يخلق الله هذا الكون العظيم الشاسع ، بما فيه من خيرات وكنوز ومنافع ، إلا من أجل الإنسان ، وبغية إصلاحه ، وتمكينه من أداء مهامه ورسالته في الحياة .

ولقد صرح القرآن الكريم بأن جميع ما في الكون خلق للإنسان ليستفيد منه ، وليكون وسيلة لعيشه الهانئ ، وأداة لتقدم الحياة البشرية ، فقال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] أي خصص جميع ما في الأرض من منافع للإنسان ، وفصل هذا التخصيص وأوضحه في آيات أخرى ، منها قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى

﴿٨١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا
 وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ
 نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿ [النحل : ٨٠-٨١] . ومنها في بيان
 نعمة وجود الجنسين والتزاوج : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] .

ومنها في إيجاد السموات والأرض : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿ [الأنعام : ٢-١] .

ومنها ما بينه سبحانه وتعالى من خيرات السماء وبركات الأرض
 وتكوين الجبال ، وإيناس الإنسان بمخلوقات الله المختلفة ، فقال
 سبحانه موجهاً إلى مختلف العلوم الطبيعية وعلم طبقات الأرض ،
 ومركزاً على ضرورة استفادة العلماء من تلك الكنوز الأرضية : ﴿ أَلَمْ
 تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ
 وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيُّ سُودٌ ﴿٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ
 مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿
 [فاطر : ٢٧-٢٨] .

هذا التقابل في الخطاب المباشر بين الخالق والمخلوق ، بين الله
 والإنسان دليل قاطع على أن للإنسان رباً واحداً وإلهاً واحداً ، خلقه
 وسوّاه وأحسن خلقه ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ودليل على أن
 الإنسان المخلوق بوساطة القدرة الإلهية هو أكمل خلق الله ، وأبدع
 ما في الكون ، وأجدر شيء بتنفيذ مراد الله في أرضه ، كما وصف الله
 تعالى بقوله : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾

استخلاف الإنسان في الأرض :

اصطفى الحق سبحانه وتعالى الإنسان من بين سائر مخلوقاته ، ليكون خليفة بشرية في الأرض لعمارته واستغلال مواردها ، واستخراج خيراتها وكنوزها ، وليكون آية عجيبة خارقة على عظمة الخالق المبدع ، وليصبح هو السيد الأمر الناهي المدبر والمخطط في عالم الأرض بإلهام الله وتوفيقه وتمكينه من القيام بالمهام المختلفة بما زوده من طاقات فكرية وإرادية وجسدية ، وسخر له كثيراً من الكائنات في البر والبحر والسماء ، ومنحه مفاتيح المعرفة لخيره ونفعه ومصالحته . وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] أي إني جاعل في الأرض خليفة في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم وذريته ، أو جاعل قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل .

ومن أجل تمكين هذا الخليفة من التجمع المدني والارتباط الاجتماعي والتعاون الشامل ، علّمه الله اللغات وأسماء المسميات ، ليسهل عليه وعلى ذريته التخاطب والتفاهم والكلام ، فقال الله تعالى مباشرة بعد قرار الخلق وجعل آدم في الأرض : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١-٣٢] .

والخلافة موروثه بين بني البشر ، توارثها أبناء آدم وذريته عنه ، ومنهم من حكى الله تعالى تسليمه هذه الخلافة في أقوى مظاهرها ، وهو الحكم والسلطة والنفوذ ، كما حصل لداود عليه السلام : ﴿ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن

سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿

[ص: ٢٦] .

تكليف الإنسان :

كلما ازداد تكريم الإنسان والعناية به ورعايته والتنويه بشأنه ، كلما تضاعفت مسؤولياته ، وحُمِّلَ تبعات جساماً تتناسب وقدره ، وتلتقي مع الدور الفعال الذي يقوم به في إدارة الأعمال ، والقيام بالتحركات المؤدية إلى كل رفعة وسمو وتقدم وعلو . والدليل على ذلك ما يقوله علماء النفس : إذا أردت القضاء على إنسان فاتركه دون عمل ، أي أن إهماله دليل على الاستخفاف بشأنه والاستهانة بقدره .

لذا فإن الله سبحانه اختار الإنسان ليحمِّله تبعات التكليف بالتكاليف الإلهية ، ويجعله مسؤولاً عن أفعاله وأقواله وتحركاته في دورة حياته ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

والأمانة : هي التكليف الشرعية من أوامر ونواهٍ ، وفرائض ومحرمات . والإنسان في القرآن الكريم هو الخليفة المسؤول من بين المخلوقات بما أودع الله فيه من عقل يفكر فيما يرى ويسمع ، وبما استقر في نفسه من فطرة سوية ووجدان يرشده إلى مسالك الخير ، وينفرانه ويبعدانه عن ألوان الشر ، ويوبخانه إن انحرف ، ويرتاحان إذا استقام ، والله في خلقه شؤون وأحوال ، وتصرفات وتقديرات تقوم على الحق والعدل والرحمة والعلم بما يفعله الإنسان قبل أن يفعله ، ومن قبل أن يُخلَق أيضاً ؛ لأن علم الله تعالى واسع شامل ، يعلم الماضي والحاضر والمستقبل ، قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِذَا مَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] ، وقال

سبحانه : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

ومناط التكليف : العقل ، فلا تكليف بأي مهمة من دون عقل ، فهو أداة الإدراك والتلقي والاستيعاب ، وهو المذكر بالواجب ، والدافع إلى المطلوب ، والمقدر عواقب الأمور ، والمراقب لكل حركة وسكنة ، وغيرها من وظائف العقل الإنساني ، والعقل بصيرة ورشد ، وروية وتدبير ، وفهم وفكر ووازع وتخطيط وإبداع .

وما هذا الربط بين التكليف والعقل إلا آية على تكريم الإنسان ، وبيان شأنه وتقدير دوره في الحياة ، وهو أيضاً فضيلة تدل على تقدير نعمة العقل ، وجعله أداة الحكم على الأشياء بالخطأ أو الصواب وتمجيد العقل والتنويه به وكونه أداة فهم الخطاب الإلهي ، بواه لأن يكون خاتمة كثير من آي القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤] ﴿ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ﴿ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴾ [طه : ١٢٨] ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [النساء : ٨٢] ﴿ أَفَلَا يَبْصُرُونَ ﴾ [السجدة : ٢٧] ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس : ٦٨] .

والعقل الإنساني العظيم حجة على أصحابه ، فهو ملاك الأمر وقوامه في تنفيذ الأوامر الإلهية واجتناب النواهي ، فقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَانُوا لَكُم مِّنْ أَضْلٍ أُولَئِكَ هُمُ الْعُقَلُوبُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

وأصبح العقل بهذا التكليف والتشريف الإلهي سبيلاً لإدراك أسرار الكون وآياته ، وفهم نظامه وحركته ، والاستفادة من معطياته ودروسه وآثاره .

وصار العقل كذلك هو قاعدة الحكم على الأشياء ، فلا مجال للكهان والمنجمين والمشعوذين والقصاصين والخرافيين وأصحاب الأساطير ، ولا للأحبار ورجال الدين ، ولا للسلطان والحاكم بالهوى والشهوة ، وإنما الحكم للعقل المجرد المهتدي بنور الهداية الربانية ، المتفاعل مع نظام التكليف الشامل للبشرية من دون تمييز بين الناس بسبب الجنس أو اللون أو العرق أو الأصل ؛ لأن العدل مع العقل ميزان التكليف وأساس التشريع ، ولا يعذر إنسان يطيع هواه أو يعطل عقله ، وينقاد لإمرة السادة المستكبرين أو الأحبار المتسلطين بسلطان الدين وحب المال ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

ومما نحمد الله عليه أن التشريع الإسلامي جاء مع تطور نضوج العقل البشري ، كما أبان الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد ، ولعل أعظم ما يدعم خلود الإسلام أنه دين العقل والحكمة ، ونحن في عصر التقدم العلمي الرائع لم يعد أحد يقبل بغير العقل والحكمة والرأي السديد ، وقد انحسر دور التضليل والتلاعب بالعقول والأفكار ومقدرات الشعوب والمناورات السياسية ، وأدرك الناس أن ميزان الحكم على التصرفات العامة والخاصة خاضع للعقل والتحليل والفهم ويُعد النظر .

وتظل قدسية التكليف الإلهي فوق أي اعتبار ، فلا يسقط التكليف عن العاقل إذا تصادم مع إرادة بشرية أو نزوة طائشة ، ولا يمتنع

التكليف حال ادعاء الجهل أو عدم العلم ، لأن العقل ينمو بالعلم ،
والعقل عقلا ن : مطبوع فطري ، ومكتسب إرادي ، والعقل المكتسب
يكون بالتعلم ، والعلم يحقق واجب التكليف ويدل عليه ، ولا يعطله
أو يلغيه ، قال الله تعالى :

﴿ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

وخلاصة القول : إن ارتباط التكليف بالعقل دليل على إرادة الله
ووجوده ووحدانيته ، وعلى تكريم الإنسان والتنويه بمهامه ورسالته ،
وعلى أن المسؤولية شخصية فردية ذاتية ، فمن مفاخر الإسلام مبدأ :
﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، ويوضحه قوله تعالى :
﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيمًا فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾
[الإسراء : ١٣] .

بدء خليقة الإنسان :

خلق الله تعالى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من الطين
المشتمل على التراب والماء ، والطين مادة ، والمعول عليه هو الروح
التي نفخها الله في تلك المادة ، فلولا الروح والإرادة الإلهية والقدرة
الربانية لما وجد الإنسان ، فالمكوّن والخالق والموجد إنما هو الله
تعالى ، وأما الطين فهو العنصر الذي وجد الخالق فيه الصفات
الملائمة للتفاعل مع طبيعة الأرض التي يعيش فيها ذلك المخلوق .

وجاء بيان خلق الإنسان الأول في كثير من آي القرآن الكريم ،
منها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ ثُمَّ
أَنْتُمْ تَعْمَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢] ، ومنها قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢] . وقد يعبر عن الطين بالصلصال :
وهو الطين اليابس الذي يشبه الفخار ، فقال الله تعالى : ﴿ خَلَقَ

الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾

[الرحمن : ١٤-١٥] .

ثم خلق الله حواء من جنس آدم أو من نفسه ، فقال الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ انْتِفَؤُا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ١] ، فسّر جماعة من المفسرين كالرازي ﴿وخلق منها﴾ أي من جنسها ، وفسرها آخرون بأن حواء خلقت من ضلع آدم . فهذان نوعان من الخلق : آدم خلق من غير أب ولا أم ، وحواء من أب فقط ، ثم خلق الله عيسى عليه السلام من أم بلا أب ، ثم كان الخلق الأغلب المعتاد وهو خلق الناس من الجنسين : الذكر والأنثى ، فقال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٤] ، فأدم من تراب ، والنطفة بتحليل العلماء مكونة من عناصر التراب ، والأساس كله هو الروح التي يوجدها الله في الكائنات الحية كلها .

وكل إنسان مخلوق في أحسن تقويم ، سوي البنية ، كامل النشأة ، ومزود بالعقل والإرادة ، ومتميز على خلائق الأرض بالعقل والحكمة ، قال الله تعالى : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة : ٩٧] ، وقال سبحانه : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] .

وفي آيات قرآنية أوضح الله تعالى مراحل خلق الإنسان ، وجمعها في آية شاملة مطابقة لما اكتشفه الأطباء وعلماء التشريح ، مثل قوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا

فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لِحَمَائِمٍ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾

[المؤمنون : ١٢-١٤] .

ولا حاجة بنا بعد هذا البيان الإلهي القاطع عن أصل خلق الإنسان إلى إبطال نظرية النشوء والارتقاء للعالم الأوروبي داروين التي تزعم أن أصل الأحياء من إنسان وحيوان وطيور هو كائن من خلية واحدة ، ثم تطور إلى خليتين ، ثم أربع ، وهكذا ، وأن الإنسان تطور عن القرد ، لوجود تشابه بينهما في الرأس وغيره من الأعضاء ، فقد أبطل العلماء المعاصرون هذه النظرية ، وأبانوا خطأها قطعاً ، لأن هناك حلقة مفقودة بين الإنسان والقرد ، كما قال داروين نفسه ، وهو ذلك الكائن الذي تطور إليه القرد ، ثم تطور هو إلى الإنسان ، ولماذا لم تتطور القردة الموجودة حالياً ، ولماذا لم يتطور الإنسان إلى شيء آخر ؟ ثم إن نسبة الكروموزومات^(١) في الإنسان أكثر منها في القرد ، مما يقطع بأن كلاً من طبيعة مستقلة عن الأخرى .

وحدة المنشأ الإنساني :

الناس جميعاً متساوون في النوع الإنساني ، فهم من أصل واحد ، وأب واحد ، كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لا تفاضل ولا تمييز بينهم في الجنس واللون والعرق والعنصر ، وإنما التفاضل بينهم بالتقوى (الكلمة الجامعة لكل الفضائل والأوامر والنواهي) والعمل الصالح .

والأصل الإنساني الواحد هو ما أعلنه القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

(١) وهي الصبغيات المكونة للصفات الخلقية للأعضاء والخلقية والوراثية .

كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١٢﴾

[النساء : ١] .

وكون الناس من أصل واحد ، لا من أصول متعددة : إعلان قاطع صريح لمبدأ المساواة بين البشر ، وإشعار لهم بضرورة التعاون والتعارف ، وتبادل المنافع ، وإشاعة الأمن والسلام ، والحب والود والاستقرار في ربوع الأرض ، وقد أبان القرآن الكريم مبدأ التسوية في الخلق ، فقال الله تعالى :

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [الحجرات : ١٣] .

وإذا تعدد البشر شعوباً وقبائل كما أشارت الآية المذكورة ، فإن هذا التعدد لا ينسيهم الأصل الأول ، ولا يمنعهم من إحكام صلة التعارف والتعاون بينهم ، وإنما يذكرهم دائماً بأنهم مخلوقون من خالق واحد ، ويعرفهم بالرب الواحد الذي أوجدهم من العدم ، ورباهم وتعهدهم بالعناية والرعاية ، وما تزال عنايته ورعايته ملازمة لهم في جميع أطوار حياتهم حتى الممات .

بل إن هذا التعدد شعوباً وقبائل من أقوى عوامل التقارب والتفاهم ، لا التباعد والتباغض ، فإن تعدد المخلوقات ، وتفاوت الأصناف ، وتغاير الألسنة ، والأصوات واللغات والألوان آية على وحدة الخالق الموجد ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَنْ آيِنِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَسْنِينَ وَالْوَنُكْرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ [الروم : ٢٢] .

ووحدة الخالق تقتضي وحدة المخلوقات ، وأن الناس أمة واحدة مهما تباعدت ديارهم وأوطانهم ، وتباينت طبائعهم وعاداتهم ،

وتغايرت أوضاعهم الحضارية ، فقال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٣] ، وقال عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس : ١٩] .

والتقابل بين الوجدتين السابقتين معناه وحدة المعاملة ، فالله تعالى يسوي بين العباد ، ويمنحهم الرحمة ، ويحكم بينهم بالعدل والإنصاف ، ويحاسبهم على أعمالهم بميزان واحد ، فلا يكيل لفلان بكيل ولا يكيل لغيره ، ولا يحابي في الحساب أحداً ، ولكن الله أن يعفو ويتفضل على عباده بالرحمة والمغفرة ودخول الجنان ، يفعل ما يشاء ، لا راداً لقضائه ، ولا معقب على حكمه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر : ٤٦] .

أوضحت في القسم الأول من هذا البحث مكانة الإنسان في القرآن الكريم والشرائع الإلهية ، وأبنت أن جميع ما في الكون مخلوق لخير الإنسان ونفعه ، وأن الإنسان هو الخليفة الصالح في الأرض من بين مخلوقات الله ، والخلافة تقتضي المسؤولية والتكليف لتمييز المحسن من المسيء ، والناس قاطبة على قدم المساواة في التكليف الإلهية والطبيعة الإنسانية أو النوع البشري ؛ لأن وحدة الخالق تقتضي وحدة المخلوقات . وأتابع في بيان عناصر أخرى من هذا البحث لمعرفة مدى تكريم الإنسان عند خالقه ، وطبيعة تكوينه المادية والروحية ، وصفاته الخلقية والخلقية ، ليكون الإنسان في حذر دائم ، وحاكماً حازماً على نفسه ، مجاهداً لها ، محققاً التوازن في نهاية المطاف بين نازعات الخير والشر ، ومختاراً الأفضل والأجدى نفعاً في صراع الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والميول والأهواء النافعة والضارة .

تكريم الإنسان إلى الأبد :

الإنسان صنع الله الذي أتقن كل شيء ، وأثره العجيب الذي أودع فيه أسرار القدرة الإلهية الفائقة ، وحقائق المشيئة الربانية ، والحكمة السرمدية ، ليكون الحاكم الأمين القادر في الأرض ، والخليفة الصالح في الدنيا ، مما اقتضى تكريم الله للإنسان : تكريم العنصر البشري بذاته ، وتميزه وتفضيله بالعقل الذي هو أداة المعرفة ، وسبيل الإنجاز والبناء ، ومفتاح الكون ، ومفجر طاقاته ، مع التزام مبدأ العبودية للحققة لله الخالق ، قال الله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

أما تكريم العنصر البشري بذاته فيتجلى فيما أمر الله به الملائكة من السجود لآدم أبي البشر عليه السلام سجود تحية وتعظيم ، لا سجود عبادة وتقديس أو تأليه ، فقال الله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] ، وفي آية أخرى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .

وأما تمييز الإنسان وتكريمه بالعقل الذي هو أداة هداية ورشد وخير إذا حسنت المحاكمة وصدقت التأملات والمشاهدات ، فيظهر فيما قصه القرآن الكريم علينا ، وأخبرنا الله تعالى به في بيان مدى فضله على الإنسان وإحسانه له ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، كرم الله الإنسان بالعقل والحواس ، فجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه به الأشياء ، ويميز به بين الخير

والشر ، وبين الضر والنافع ، ويدرك به منافع الأشياء وخواصها ومضارّها في الأمور الدينية والدنيوية . وقد استدل العلماء بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة . روى الطبراني عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم ، قيل : يارسول الله ، ولا الملائكة ؟ قال : ولا الملائكة ، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » .

الطبيعة المادية والروحانية في الإنسان :

من المعلوم أن حقيقة تكوين الإنسان التي فطر عليها قائمة على المادية والروحانية ، فهو جسد وروح متلازمان معاً ، فله نزعات بشرية شهوانية أو نزعة شر ، كما أن له أيضاً ميولاً طيبة أو نزعة خير ، وتتغلب إحدى النزعتين على الأخرى بالتمييز والعقل وجهاد النفس ، وكان تشريع القرآن لصالح الإنسان في الدنيا والآخرة منطلقاً من وجود هذه الطبيعة المزدوجة والنظرة الواقعية المعتدلة التي لا إفراط فيها ولا تفريط ، وتعتمد على إيجاد توازن بين المطلبين ، وتوسط في تحقيق الغايتين ، كشأن وسطية الإسلام في كل شيء ، ومنها التوازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية في النظام الاقتصادي الإسلامي ، ونظام الحكم الديمقراطي ، وهذا هو الاتجاه الحديث الذي برز بعد انهيار النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي في آب ١٩٨٩ ، ولقد قرأت اليوم مقالاً يمثل هذا الاتجاه في مجلة « المجال » ص ٢٤٥ ، محرم ١٤١٢ - آب ١٩٩١ ، يقول فيه الكاتب رايموند غاستيل : « ينبغي على الشعوب السائرة نحو الحكم الديمقراطي أن تحاول الموازنة بين حقوق الفرد وحقوق الجماعة » .

أما تحقيق التوازن والاعتدال بين المادية والروحانية في تشريع

القرآن ، فواضح من عناية التشريعات الإسلامية بكلا الناحيتين ، فلم يحجب الله الإنسان أو يمنعه من إرواء مطالب الجسد ، وإنما أباح له الاستمتاع بطيبات الحياة وبالمتعة الزوجية القائمة على أساس العقد الصحيح المعلن للناس ، القائم على الإيجاب والقبول والتراضي السليم بين العاقدين ، من غير إكراه ولا تغرير أو تدليس ، ولا إسراف ولا استغلال ، ولا مبالغة . ولم يهمل التشريع القرآني جانب الروح أيضاً ، وتهذيب النفس ، وتلبية مطالبها وتنمية الميول الخيرة ، وإغناءها بالقيم السامية العليا ، وترغيبها بالفضائل ، وتنفيرها من الرذائل ، وإشباعها بالعواطف الإنسانية ، وتوجيهها نحو المثل الكريمة الصالحة .

قال الله تعالى فيما يتعلق بالجانب المادي أو الجسدي والاستمتاع بالحياة المعيشية : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة : ٨٨٨٧] وهذا نص صريح في إباحة الطيبات ، والبعد عن الخبائث والمحرمات ، وتلك هي مهمة أساسية لرسول الله ﷺ الموصوف في الكتب الإلهية السابقة كالتوراة في قوله تعالى عنه :

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وفي المظهر والملبس ، أمر الله سبحانه بأخذ الزينة للعبادة ، ورسم للإنسان سياسة الإنفاق من غير إسراف ولا تقتير ، فقال : ﴿ يٰٓبَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣١-٣٢] . وأما نظام الإنفاق فهو الترشيح السديد المعتدل كما أمر تعالى بقوله ناهياً عن البخل والتقتير ، والإسراف والتبذير : ﴿ وَلَا

جَعَلَ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ [الإسراء :
 ٢٩] وفي النشاط الاقتصادي الحر ، جعل الله تعالى السعي للدنيا
 كالسعي للآخرة فقال : ﴿ وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ
 نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] .

وأما إغناء الروح بالقيم الخيرة : فهو مقصد تشريعي أساسي من
 مقاصد القرآن الكريم ، قال تعالى آمراً بمجاهدة النفس وعدم الانسياق
 في إشباع غرائزها : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ [الحج :
 ٧٨] . وقال سبحانه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس :
 ٩-١٠] أي نجح ونجا من نَمَى عوامل الخير في نفسه ، وطهرها من
 الذنوب والمعاصي ، وخسر من أهملها وأخفاها بالمعصية ، ولم
 يعمل على تنمية العواطف الخيرة فيها ، وتركها في غرائزها الطبيعية
 تسرح وتمرح .

ولو تتبعنا آيات كثيرة أخرى من القرآن الكريم ، لوجدنا فيها
 الاتجاه المتوازن المعتدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، دون
 انفصال بينهما ، أو انقطاع بين العقل والمادة ، أو تجاف وتنافر بين
 دين ودنيا ، أو تعارض بين العمل للدنيا بمختلف مظاهر الحضارة ،
 والعمل للآخرة في شتى درجاتها ومراتبها ، والعقيدة الإسلامية أو
 التشريع القرآني جعل الإحسان للروح مثل الإحسان للجسد دون
 إسراف ولا انحراف ولا جور . وهذا ما يساعد العلماء والقضاة
 والأطباء في الحكم على النفس الإنسانية ، فإن كان هناك اعتدال ،
 تحقق الخير ، وإن كان هناك جنوح وإسراف ، وجور وظلم ، وبغي
 وعدوان ، ظهر الشر ، وبانت الحاجة الماسة إلى العلاج والإصلاح ،
 وقد يكون الغنى سبباً لطغيان الإنسان وإسرافه ، فيجب توجيهه نحو
 الخير العام ، لذا حذر الله تعالى من مخاطره إن لم يحسن صاحبه

إدارته وإنفاقه ، فقال :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ﴿٢﴾ [العلق : ٦-٧] .

صفات الإنسان الخَلْقِيَّة والْخُلُقِيَّة :

هناك توازن أيضاً في غرائز الإنسان وصفاته المادية الطبيعية والخلقية الأدبية ، وحينما يذكر القرآن هذه الصفات ، يجعل الخير الطيب المليح منها مدعاة لشكر النعمة والمحافظة عليها ، ويجعل الخبيث والشر منها موطناً للحذر واليقظة وعدم الإفراط فيها ، والتنبيه إلى خطورتها حال الاسترسال فيها ، والاستجابة المطلقة غير المتأنية ولا المعقولة لدواعيها وسلطانها وتأثيرها ، فكما أن الإنسان مطبوع على صفات شهوانية ، مطبوع أيضاً على خصائص خيرة ، فيكون قادراً على التغلب على صفات السوء وقمعها أو تعديلها وتصعيدها نحو الأفضل .

أما الصفات والخصائص المادية ، فأهمها ثلاث :

١- جمال الخلقة والتكوين والصورة : خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وأكمل صورة وأجمل خلقة ، وجعل مظهره وباطنه وحواسه وأعضائه تجمع بين المنفعة والجمال ، فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار : ٨٦] . وأقسم الله تعالى بأن تلك البنية والهيئة الإنسانية هي أقوم وأكمل الصور المخلوقة ، فقال :

﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ [التين : ١-٤] .

وتلك الصورة مزدانة بالفكر المتفتح ، مدعمة ومزودة بالعقل الذي به يستطيع الإنسان معرفة صفات الله والشرائع ، والضار والنافع ،

ومعرفة نفسه ، قال ابن العربي : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حياً عالماً ، قادراً مريداً متكلماً سمياً بصيراً ، مدبراً حكيماً ، وهذه من صفات الرب سبحانه ، وعبر عنها بعض العلماء ، ووقع البيان لكل ذلك بقوله ﷺ - فيما يرويه الإمام مسلم - : « إن الله خلق آدم على صورته » يعني على صفاته التي ذكرت .

٢- جمال المظهر الكمالي : كمل الله تعالى الإنسان بنعمة الستر واللباس والزينة الظاهرة ، فإن اللباس أو الزينة مظهر حضاري متقدم ، يحقق الجمال ، ويحفظ الهيئة والاعتبار ، ويصون السمعة ، وأما العُري والتبذل وكشف العورات ، فهو مظهر بدائي متخلف مرفوض فطرة وذوقاً وأدباً ، لذا امتن الله تعالى على البشر بنعمة الستر واللباس ، فقال : ﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَكْمٍ وَرِيئًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٦] أي إن لباس التقوى ، وهو العمل الصالح لا شك خير من اللباس الظاهري الخالي من العمل الطيب ، فأى فائدة أو فضل في لباس حسن جميل ، تجرد صاحبه من القيم والأخلاق ، وأعمال الصلاح ، وطاعة الله عز وجل ، فلا بد من تجميل الظاهر والباطن معاً ، لذا أمر الله تعالى بالتجمل بالثياب حين أداء الصلاة لتحقيق هذا المقصود ، فقال : ﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] أي عند كل صلاة ، وهذا وإن كان خطاباً لمن كان يطوف من العرب حول البيت الحرام عرياناً ، فالمقصود به الخطاب لجميع العالم ، كما قال القرطبي وغيره من المفسرين .

٣- كمال الصحة وجمال الأجسام : إن استمرار حياة الإنسان مرهون بقوة جسده ، وشدة بنيته ، وجمال أعضائه ، ولا تقوى البنية والأعضاء إلا بالغذاء والرياضة والنشاط والحركة ، والبعد عن كل

المؤذيات وأنواع المضار ، ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بجعل الغذاء من طيبات الرزق المستطابة للنفس ، فقال : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة : ١٦٨] ، وأكد الله تعالى تناول الطيبات واجتناب المستخبثات الضارة ، فقال : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٧٢] وقال سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ [المائدة : ٥] ووصف الله نبيه في التوراة كما تقدم بقوله : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] وإتماماً لهذا المبدأ حرّم الله تعالى المحرمات الأربعة ونحوها فقال : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [المائدة : ٣] أي إن ما ذبح للأصنام والأوثان فيه إضرار بالعقيدة ، وتلويث لطهر النفس التي لا يصح أن تعبد غير الله تعالى مصدر الحلال والحرام ، فكان الضرر المعنوي كالضرر المادي تماماً ، وهذا مبدأ معروف ومقرر في نظام الحياة وأعراف الناس والقوانين السائدة .

وليس غريباً بعد هذا أن يعنى القرآن الكريم بتوجيه الإنسان إلى ضرورة اختيار نوع طعامه وشكر المنعم عليه ، فقال الله عز وجل : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۗ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْيَأْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَلَكَهًا وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَثَلًا لِّكُلِّ وَلَا تَعْمُرْكُمْ ﴾ [عبس : ٢٤-٣٢] والآب : المرعى .

وأما الصفات والخصال المعنوية الأدبية ، فكثيرة أهمها ما يأتي :

١- ضعف الإنسان : خلق الإنسان ضعيفاً مادة ومعنى ، حساً واختياراً وإرادة ، فهو بحاجة مستمرة إلى الطعام والشراب والراحة والنوم ليلاً ونهاراً ، وهو كثير المخاوف ؛ ضعيف خائر القوى عند

الشدائد والأزمات ، ويشكو عند المصاعب ، ويتأوه في المرض ،
ويثن وقت المصيبة ، ويسترخي عند الصدمة ، صحيح شحيح ، يأمل
الغنى دوماً ويخشى الفقر ، فكان من رحمة الله به تكليفه بما يستطيع
تحمله ، والتكليف خفيف سهل يسير ، والدين سمح سهل ، ولم
يجعله الله ضيقاً حرجاً صعباً ، قال الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ
وَحُلُقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾
[البقرة : ٢٨٦] ، ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة :
١٨٥] ، ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] ، ﴿ فَأَنْقَرُوا اللَّهَ مَا
أَسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ [التغابن : ١٦] ، وضمن الله لعباده الرزق
ويسره لهم تظميناً لهم ومراعاة لضعفهم فقال : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا
تُوعَدُونَ ﴾ [٢٢] ﴿ فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَنْطِقُونَ ﴾ [الذاريات :
٢٢-٢٣] ، ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] ، ﴿ وَمَا
خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٥٦] ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ [٥٦] إِنَّ
اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨٥٦] .

٢- نزعة الإنسان إلى البطر والطغيان : الإنسان ميال غالباً إلى البطر
عند النعمة ، والاسترسال في الملذات حين السعة ، والانسياق في
الشهوات حال الرفاهية ، وقد حذره الله في القرآن المجيد من هذه
الأمراض النفسية ، فقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴾ [العلق :
٧-٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِنِعْمَتِ اللَّهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ
كَانَ يَتُوسَّسًا ﴾ [الإسراء : ٨٣] ، وقال عز وجل : ﴿ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً
فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : ٣٦] ، وهذا
كله شأن الجاحد النعمة ، ضعيف الإيمان ، أما المؤمن فشأنه الشكر
عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بالقضاء ، ولذا ورد استثناء
المؤمنين عقب قوله تعالى في آيتين : ﴿ وَلَئِن أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِثْرًا رَحْمَةً ثُمَّ

نَزَعْنَهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَتَوَسَّسُ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِن أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ [هود : ٩-١٠] فقال سبحانه عقب ذلك : ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود : ١١] .

٣- الانصاف بالهلع والجزع والبخل : يجزع الإنسان ويتألم حين نزول الشر به ، ويبخل عند إقبال الخير عليه . وهذا خلق غير سوي ، ذمه الله بقوله في وصف الإنسان : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٦﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ [المعارج : ١٩-٢٢] قال الزمخشري : أريد بالإنسان الناس ، فذلك استثنى منه ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ . وأما بخل الإنسان فمذموم أيضاً كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ [العاديات : ٨٦] ، وقال سبحانه : ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا ﴿١٠٠﴾ [الإسراء : ١٠٠] أي مبالغاً في البخل .

٤- التسرع في طلب الأشياء : يتعجل الإنسان النتائج عادة ، ويلح في طلب الخير ، ولا يتأنى تأني المبصر في محاولات الحصول على الأرباح والمنافع ، فيجلب العذاب أحياناً عليه ، قال تعالى واصفاً فيه هذا الخلق : ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَ الْمُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١٠١﴾ [الإسراء : ١١] ، وقال سبحانه : ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ [الأنبياء : ٣٧] .

٥- قلة الوفاء بالمعروف وعدم الثبات على المبدأ : الإنسان سريع النسيان ، قليل الوفاء ، كثير الجحود وإنكار المعروف ، يتقلب بسرعة في أحواله ، ولا يثبت على المبدأ الكريم ، يتنكر لمن يحسن إليه ،

علماً بأن أوسع المحسنين إليه هو الله الخالق الرزاق له ، أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « ليس أحدٌ أصبرَ على أذى سمعه من الله ، إنهم ليَجعلون له ولداً ، ويجعلون له أنداداً ، وهو مع ذلك يعافهم ويرزقهم » والإنسان قليل الوفاء بالمعروف ، يعرف ربه عند الشدة ، وينساه في حال الرخاء ، وصف الله سبحانه هذا الواقع بقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٢] . وهناك واقع آخر مشاهد بين الناس كثيراً صوره القرآن في قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلُمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّهْتُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان : ٣٢] . وربما كان أجمع آية لهذه الصفات قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّا الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، وقوله عز وجل في بيان ميل الإنسان إلى الكفر والجحود : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف : ١٥] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ﴾ [عبس : ١٧] أي ما أشد كفرة وجحوده ، وهذا شأن الكافر ، أما المؤمن فشأنه الإقرار بالنعمة والشكر عليها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٠] .

٦- الميل إلى الظلم : يتعرض الإنسان أحياناً في فترات ضعفه وقلة رويته إلى الطيش والحماسة والاستبداد وظلم الآخرين والتعدي عليهم ، بل إنه قد يظلم نفسه ، وفي كلا الحالين هو الذي يجني عاقبة الظلم ؛ لأن الظلم لا يدوم ، وأخطاره تصيب الظالم ذاته ، وجزاء الظلم شديد ، فيه خسارة لنفس الظالم أولاً ، وللأمة والمجتمع بعدئذ ، لذا تكرر في القرآن الكريم التنديد بالظلم ، والإنذار بأنه

ظلمات يوم القيامة ، وترددت الإشارة إلى الظلم في القرآن المجيد أكثر من عشرين مرة ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة : ٧٠] فالظلم تدمير لمصالح الفرد والجماعة ، وللأمة والدولة ، وللمصالح الشخصية والاجتماعية ، وما أقبح الظلم والاعتداء على الحقوق ؛ لأنه تجاوز على القيم ، وافتتات على الآخرين ، وأخذ لأموال الناس بالباطل ، وسطو على الأعراس والحرمان والكرامة الإنسانية .

٧- حب الجدل : الجدل نوعان : محمود ومذموم ، أمّا المحمود : فهو الإقناع بالحق ، والإرشاد للاعتقاد الصحيح ، وإبانة منهج الاستقامة ، وإثبات صحة المعارف والعلوم ، والتخطيط لمستقبل أفضل في حياة الأمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وأمّا الجدل المذموم : فهو المراء ، وهو كثير بين الناس ، حياً في مناصرة الهوى ، وتأييد الباطل ، وطمس معالم الحق .

والجدل المحمود مطلوب عند الحاجة إليه ، أمّا الجدل المذموم فهو منبوذ منفرّ موقع في الضلال ، وهو شأن الكافرين ؛ لأنه محاولة لإقرار الباطل ، بعد اتضاح الحقيقة ، وقد ذمّ الله تعالى هذا النوع بقوله : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٤] أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل جدلاً . ووصف الله الكافرين بما هو شأنهم بقوله : ﴿ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر : ٥] ، وقوله أيضاً : ﴿ وَيَجِدِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ [الكهف : ٥٦] وأكد سبحانه وجود صفة الجدل في الكافر بقوله : ﴿ أَوْلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ [يس : ٧٧] .

هذا هو إنسان القرآن ، إنسان الماضي والحاضر والمستقبل ، إنه خليفة في الأرض ، ومسؤول مكلف بطاعة ربه وبعمارة الكون ، والتكليف دليل التكریم ، وأكرم الخلق عند الله ، وله مهماته ومسؤولياته العظمى في الحياة ، والشأن فيه أن يكون حياً دائماً الحركة والعطاء والنفع ، وهو معظم في كل حال عند الله والناس وفي التاريخ الخالد إذا استقام وأحسن وأنتج ، ومهمل ومزدري وأخو عار إذا قصر وأساء ، ومقوماته الإيجابية كثيرة ورفيعة ، أساسها الحكمة والعقل والرشد والهداية إلى الطريق القويم ، يستطيع بها وبهداية الله له في قرآنه أن يتغلب على نزعات الشر لديه ، ويقمع شهواته ، ويتخلص من عيوبه ، وما ذلك بالأمر الصعب عليه ، فلا تسمو إنسانية الإنسان دون جهاد النفس ، وجعلها مصدر إشعاع لكل خير وفضيلة ، وأداة كل تقدم وحضارة ، وسبيل كل بناء ورفعة ، ونفع للأمة والوطن الكبير والإنسانية جمعاء ، ومنهاجه ما قال الحق تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٧٤] ، وقال سبحانه : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

* * *

الإنسان في القرآن الكريم

بمنظور رسائل النور للداعية سعيد النورسي

تمهيد^(١) :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى صفة عباده ورسله وأوليائه وأئمة العلم والهدى إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذا بحث تحليلي عن « الإنسان في القرآن الكريم بمنظور رسائل النور » لمؤلفها الداعية والعلامة المصلح بديع الزمان النورسي^(٢) ، يتبين فيه أن الإنسان وسيلة وغاية ، ونجاح الوسيلة يتحقق بالإعداد الإلهي السيد للإنسان ، وتسليحه بإمكانات وطاقت عجيبة وغريبة ، مكّنه من الإفادة من مخزونات الكون ، ووجّهه نحو الوصول إلى الغاية القريبة في الدنيا : وهي إعمار الكون وتقديمه ، وتجميله من خلال أعمال الفكر والعقل البشري ، ودفع عجلة البناء بعزيمة قعساء

(١) المؤتمر العالمي باستنبول للفكر الإسلامي ٢٤-٢٦/٩/٢٠٠٠ م

حول « النظرة القرآنية للإنسان من خلال رسائل النور »

للداعية الكبير بديع الزمان سعيد النورسي .

(٢) هو أعجوبة الثورة الإسلامية في تركيا بتعبير أ. د محمد سعيد رمضان البوطي ، ولد بتاريخ ١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٣ م ، في قرية تابعة لقضاء هيزان في ولاية بدليس ، من أبوين كرديين ، ورسائل النور ١٣٥ رسالة ، توفي في ٢٧ رمضان ١٣٧٩ هـ .

وهمة علياء ، لا تعرف التوقف أو الفتور والكلل .

ثم التوصل إلى الغاية البعيدة في الآخرة وهي الحياة الدائمة في عالم الخلود ، وتحقيق حلم السعادة عند الأسوياء ، الذين صحت عقيدتهم أو إيمانهم ، وعملوا صالح الأعمال التي تبوئهم هذه المنزلة الرفيعة .

ولقد وجدت من خلال قراءتي لرسائل النور للداعية الكبير سعيد النورسي تصوراً شاملاً لحقيقة الإنسان في القرآن موضع العناية الإلهية ، وصبغة الله تعالى الحكيمة ، بما يشمل تكوين الإنسان ، وبناء عقيدته ، وتوظيفه الفطري لعبادة الله سبحانه بالتكليف وتحمل أمانته ، وتقرير الحرية والاختيار له ضمن إطار المشيئة الإلهية الشاملة .

خطة البحث :

- تكوين الإنسان .
- كونه غرسة الإيمان .
- مظاهر صبغة الله فيه .
- تكريمه وتسخير الكون له .
- تكليفه وإعداده المادي والمعنوي .
- توجيهه لتحقيق الهدف من إيجاده أو إعداده للحياة الأبدية .
- مخاطبة جميع الناس .
- هل حقق الإنسان رسالته في الحياة ؟

● تكوين الإنسان :

الداعية المصلح النورسي شديد الإخلاص لربه ودينه ، يتفاعل مع الناس والأحداث والوقائع ، وأحوال الأمة ، فيسره سرورهم واستقامتهم وعزتهم ، ويؤلمه قلقهم واضطرابهم وانحرافهم ، لذا عني بالإنسان وقضيته وحاضره ومستقبله عناية كبرى ، وتأمل تأملاً عميقاً بحقيقة الإنسان من خلال ثقافته القرآنية ومعرفته بشرائع دينه وآدابه .

وتحدث عن الإنسان في رسائل النور أو الشعاعات في موضوعات مختلفة . فآلمه ما آلت إليه الثقافة الغربية وريثة الحضارة الرومانية المادية ، ولمس آفاتها ونقائصها ومقتل الداء فيها ، بقيامها على النزعة المادية الطاغية ، والفردية القاتلة ، والتصور بأن الإنسان مجرد آلة أو مادة ، لا يهيم إلا إرواء مطالبه المادية وشهواته الذاتية ، وأهوائه المسيطرة ، مع قطع الصلة بالروحانيات والمعنويات والنزعة الدينية الفطرية التي هي كائنة بالفطرة في كل نفس إنسانية . ولم تقتصر مفاهيم تلك الثقافة على أهلها ، وإنما انتشرت في العالم الإسلامي وغيره بسبب قوة الغرب ، وتراكم الضعفاء والمنهزمين لتقليدها في كل ما هبّ ودب . وتسلفت هذه النزعة المادية تدريجاً إلى بلاد الشرق الإسلامي ، فأصبح بعض المسلمين مشغولين فقط بإرواء رغائبهم المادية .

لقد أدرك النورسي بثاقب نظره تكامل الحقيقة الإنسانية الجامعة بين الاعتبار المادية والمعنوية ، وبين متطلبات الجسد والروح ، ففي قرارة كل إنسان ظمأ إلى الدين ، وإشباع عواطفه ومشاعره ، وحاجته إلى الذات الإلهية وإحساسه بالضعف أمام الحق جل جلاله . وهذه الحقيقة القرآنية لها ارتباط وثيق بالإيمان وأصوله ، وأبعاده

وأفاهه ، بل هي جسر لبناء عالم الدنيا والآخرة ، ومعبر للربط المحكم بين آيات الكون ودلالاتها العقدية في غرس شجرة الإيمان في النفس البشرية ، وتحقيق المطامح الذاتية والاجتماعية ، القائمة على الطبيعة الإنسانية الجسدية والروحية ، والمتفاعلة على الدوام مع استعدادات الإنسان الفطرية وسجاياه السامية ، ومشاعر المروءة والمحبة والأخوة الإنسانية لديه .

وقيمة الإنسان الفعلية تبدو في هذا التكامل الجسدي (أو المادي) والروحاني (أو المعنوي) بل إن إنسانيته لا تبرز ولا تسمو إلا بالروح ، لا بالجسد وحده . ولا يتميز الإنسان إلا بمعانيه وقيمه . ودينه وهو الإسلام منبع الفضائل كلها ، ومجمع المحاسن برمتها ، ومن أخصها الرقة والرحمة ، والشفقة والغيرة ، والعقل والوعي^(١) . وقال أيضاً عن كمال الإنسان ورقيه : « وما دام كمال الخالق الذي أوجد الكون في الكمال هو ثابت ومحقق ، وما دام كمال الإنسان الذي هو أفضل ثمرة للكون ، وخليفة الله في الأرض ، وأكرم مصنوع وأحب مخلوق للخالق سبحانه وتعالى ، حقيقة ثابتة أيضاً »^(٢) .

إن تكوين الإنسان المادي والمعنوي له دلالاته في تحقيق رسالة الإنسان في الحياة ، وفي بناء العقيدة ، وفي إدراك متطلبات المستقبل الأخرى . وكل بُعد عن أصالة هذا التكوين مرض عضال ، وخطر على الإنسان نفسه ، ولا يهدأ الإنسان وتطمئن نفسه ويشعر بوجوده

(١) انظر الشعاعات من كليات رسائل النور ص ٨٠ ، ٢٧٨ ، وما بعدها ، ٦٧٣ ، طبع شركة النسل للطباعة ، الطبعة الأولى .

(٢) المرجع السابق : ص ١٩٤ ومعنى الخلافة عن الله في الأرض أنه مأذون بالتصرف في مناحيها ومعطياتها ، وليس خليفة حقيقياً . وعلى كل حال ينبغي الابتعاد عن هذا التعبير ، لأن الخليفة وهو الإنسان ليس فيه صفات المستخلف وهو الله تعالى .

الحقيقي الآمن إلا في مظلة العقيدة الجامعة بين معاني الإحساس بالحاضر ، والتطلع للمستقبل الهانئ السعيد ، بل إن الممارسة الفعلية والتفاعل مع العقيدة هو محور المصداقية ، وأساس الثقة والارتياح لجدوى الحياة وغاية الإنسان وتحقيق حلمه في الخلود الأبدي ، لأن طعم الحياة الدنيا موقوت وقليل ، ومذاق الآخرة خالد وغير محدود ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْمِنُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : ١٦-١٧] .

● كون الإنسان غرسة الإيمان :

الإنسان في تقدير العالم الرباني ولاسيما الإمام النورسي رحمه الله ، بما توافر لديه من أعجوبة الخلق والإحكام ، والاكتمال والانسجام ، والحواس والمشاعر ، والعقل والإدراك ، يدل دلالة قاطعة بهذا التكوين البديع والتعقيد والتركيب العجيب ، على وجود الإله الخالق القادر ، العزيز المهيمن ، الصانع المبدع ، فهو غرسة الإيمان القوية الدالة على الله تعالى . وهذا ما عبر عنه النورسي في مناسبات كثيرة من رسائله ، فقال : زبدة الكلام :

مثلما تتوجه الثمرة إلى مالك شجرتها من حيث كونها مفيدة ، وترنو إلى جميع أجهزة تلك الشجرة وأغصانها وماهيتها من حيث نواها ، وتنظر إلى جميع ثمار تلك الشجرة من حيث سكتها المضروبة على وجهها والموجودة في مثيلاتها ، فتقول جميعاً : « نحن على نمط واحد ، صَدَرْنَا مِنْ يَدٍ وَاحِدَةٍ ، وَنَحْنُ مَلِكٌ لِمَالِكٍ وَاحِدٍ ، فَالَّذِي خَلَقَ وَاحِدَةً مِنَّا هُوَ خَالِقُ جَمِيعِنَا بِلا شك » .

كذلك الأمر في الكائن الحي الذي هو في نهايات دائرة الكثرة ،

ولا سيما الإنسان ، وبخاصة من حيث العلامات الفارقة الموجودة على وجهه ، ومن حيث ما في قلبه من فهرس ، ومن حيث ما في ماهيته من نتائج ، تتوجه كلها إلى الذي يمسك السموات والأرض بربوبيته الجليلة ، وتشهد على وحدانيته جلّ وعلا^(١) .

وقال النورسي في موطن آخر من رسائله :

نعم ، فما من نوع من أنواع الصخور التي في الجبال ، ولا قسم من أقسام المواد التي هي علاجات لمختلف الأمراض والعاهات ، ولا جنس من أجناس المعادن المتنوعة جداً ، والتي تلزم الأحياء ولا سيما الإنسان ، ولا صنف من أصناف النباتات المزيّنة بأزهارها الجبال ، وبأثمارها القفار ، إلا وتشهد بداهة على وجوب وجود صانع ذي قدرة غير متناهية ، وحكمة غير متناهية ، ورحمة غير متناهية ، وكرم غير متناه ؛ بما فيها من الحكّم والانتظام وحسن الخلقة والفوائد ، مما لا يمكن نسبتها إلى المصادفة^(٢) .

وفي معنى هذه الكلمة المشرقة قال أيضاً معبراً عن خطاب النباتات لله عز وجل بلسان الحال : كما أن النباتات والأشجار تعرفك - أي يا الله - وتعلم صفاتك القدسية وأسماءك الحسنی ، فليس في الأحياء المالكة للروح كالإنسان والحيوانات من فرد لا يشهد على وجوب وجودك ، وعلى تحقق صفاتك ، بأعضاء جسمه الداخلية منها والخارجية ، لأن هذه الصنعة الدقيقة ببصيرة ، والحكمة اللطيفة بشعور ، والموازنة التامة بتدبير ، لا يمكن أن تتدخل فيها القوة العمياء ، ولا الطبيعة الصماء ، ولا المصادفة العشواء ، فلا يمكن أن

(١) المرجع السابق : ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٥ .

تكون هذه الأمور من أعمالها^(١) . وهذا ما عبر عنه الأقدمون :
 وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
 ويمكن تلخيص هذه الكلمات وأمثالها بأن الإنسان وغيره من
 المخلوقات دليل على وجود الخالق ، وليس هناك أي قوة في العالم
 تخلق شيئاً كخلق الله ، وكل ذلك مستمد معناه من القرآن العظيم ،
 قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] ،
 وقال سبحانه : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف :
 ٥٤] ، ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [لقمان : ١١] ،
 ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

أي إن دليل الخلق والإيجاد : هو الدليل الوحيد القاطع الذي
 أورده القرآن لإثبات وجود الخالق . ويتحدثى الله تعالى بالخلق أي
 موجود آخر يقدر على مثل خلقه ، فقال سبحانه : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ
 مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ
 اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمْ الذُّبَابَ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ
 وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] .

● مظاهر صبغة الله في الإنسان :

الإنسان منحة الخالق ، وهبة الله وعطاؤه ، ومستودع أسرارهِ ،
 وفيه شيء من صفات الله تعالى ، وإن كانت محدودة مؤقتة ، وأما
 صفات الله فهي غير محدودة ولا متناهية ، وسرمدية دائمة .
 ومن هذه الصفات : الحياة ، والإرادة ، والعلم ، والقدرة ،

(١) المرجع نفسه : ص ٦٠ .

والتدبير ، والسمع والبصر ، والجمال ، وغيرها من المعاني ؛ لأن الإنسان وجد من روح الله وكلمته التكوينية وأمره المعبر عنه بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

واقترضت صبغة الله في الإنسان توافر معانٍ وخواص كثيرة فيه ، لاحظها النورسي رحمه الله وهي ما يأتي :

أ - إنه مظهر لتجليات أسماء الله الحسنی فيه :

قال النورسي في رسائل النور : « وكذا في الإنسان نقوش الأسماء الحسنی وتجلياتها ، فهو بهذه النقوش والتجليات يشهد على تلك المعاني المقدسة »^(١) . وقال في موضع آخر يوضح بقاء هذه التجليات في عالم الآخرة : « ثم إن الأسماء الحسنی المتجلية على الإنسان تشير إلى أن الذي هو مرآة عاكسة لتجليات تلك الأسماء في هذه الحياة القصيرة الفانية ، سيحظى بتجلياتها الأبدية في عالم البقاء »^(٢) .

وكذلك أسماء الله العديدة ذات دلالات عظيمة ، فهو سبحانه الجليل والجميل والقدير والمهيمن والرحيم واللطيف . . . إلخ .

ب - قوة ذاكرة الإنسان وحافظته :

الذاكرة الإنسانية عجيبة ، تستكن فيها ذكريات الماضي ، وتاريخ الأمم والشعوب ، وأحداث الحياة البشرية ، ودقائق العلوم وآفاقها ، وغير ذلك من أنواع اللطائف والمعارف والإشارات والشعاعات ، فلا تنساها وتستحضرها بما يسمى في علم النفس « تداعي الأفكار » وكان

(١) المرجع نفسه : ص ١٢ .

(٢) المرجع ذاته : ص ٦٢ .

تلك المعلومات المختزلة تتفجر في الذاكرة الحافظة في أدق المناسبات . قال النورسي : « ثم إننا نرى أن وظائف المخلوقات تُنَسَّج على منوال الحكمة ، وتُكَال بميزان العدل ، وهما من الدقة والحساسية لا يتصور الإنسان أفضل منهما . فترى الحكمة الأزلية قد وهبت للإنسان قوة حافظة - كحبة الخردل حجماً - وكتبت فيها تفاصيل حياته وما يمسه من أحداث لا تعد ، وكأنها مكتبة وثائقية صغيرة جداً ، ووضعتها في زاوية من دماغه ، لتذكّره دوماً بيوم الحساب ، يوم تنشر ما فيها من صحائف الأعمال » ، وقال أيضاً : « ثم إننا نرى (حفيظة) أي حافظة مهيبة محيطية بادية للعيان ، تحكم على كل شيء حي ، وتهيمن على كل حادث ، تحفظ صورته الكثيرة ، وتسجل أعمال وظيفته الفطرية ، تدوّن تسبيحاته التي يؤديها - بلسان الحال - تجاه الأسماء الحسنى . . تدوّنّها في لوحات مثالية ، في بُذيراته ونوَيّاته ، في قواه الحافظة ، وهي نماذج مصغرة للوح المحفوظ ، ولا سيما في حافظة الإنسان التي هي مكتبة عظمى مصغرة جداً موضوعة في دماغه »^(١) .

وأضاف في موضع آخر : « فمثلاً ، إن خلق القوة الحافظة والخيالية والمفكرة وأمثالها من المكائن العجيبة ، في موضع صغير في دماغ الإنسان ، لا يتجاوز حجم جوزة واحدة ، وجعل القوة الحافظة بمثابة مكتبة ضخمة ، يبين أنه سبحانه وتعالى يظهر نفسه بتجليات العلم الأزلي بياناً واضحاً كالشمس في رائعة النهار »^(٢) .

(١) ص ٢١٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ .

(٢) ص ٦٨١ .

وهذا كله من صفات الله سبحانه ، فقال :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم : ٦٤] .

ج - كون الإنسان مظهر الجمال الإلهي :

الإنسان وجميع ما في الكون يعبر عن جلال وجمال الله الصانع المبدع ، ويعرف به وبموازينه الدقيقة جداً ، ولا سيما في إبداع خلق السموات والأرض ، ومنها جمال النباتات والأزهار ، قال النورسي : « وترى العدالة المطلقة تضع كل عضو من الكائن الحي في موضعه اللائق به ، وتنسقه بموازين دقيقة حساسة ، ابتداء من مكروب صغير إلى كركدن ضخيم ، ومن نخل ضعيف إلى نسر مهيب ، ومن زهرة لطيفة إلى ربيع زاهٍ بملايين من الأزهار . . وتراها تمنح كل عضو تناسقاً لا عبث فيه ، وموازنة لا نقص فيها ، وانتظاماً لا ترى فيه إلا الإبداع ، كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر ، حتى تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال »^(١) .

وقال في مكان آخر من رسائله : « نعم ، إن هذا الكون مرآة تعكس الجمال السرمدى والحسن غير المحدود ، بل من تجلياته سبحانه ، وما في الكون من جمال وحسن آتٍ من ذلك الحسن السرمدى ، ويتجمل بالانتساب إليه فيرقى ويعلو . . إذ لولا ذلك الانتساب ، لتحول الكون إلى مآثم موحش وأخلاق ودمار وفوضى ضارب أطنابه »^(٢) .

وهذا ما عبر عنه النبي ﷺ بقوله : « إن الله جميل يحب الجمال »^(٣) .

(١) ص ٢٦٤ .

(٢) ص ٦٨١ .

(٣) أخرجه مسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

د - الإنسان ثمرة التوحيد :

الله واحد لا شريك له في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، فهو المتفرد بالألوهية والربوبية ، ولا تشابه بينه وبين المخلوقات الحادثة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

وينعكس ذلك على الإنسان في ذاته وسجاياه وخصائصه ، قال النورسي في رسائله ، علماً بأنني لم أجد عند جميع المتكلمين في العقيدة مثل كلامه في ذلك : « نعم ، إن الإنسان بسرّ التوحيد ، صاحب كمال عظيم بين جميع المخلوقات ، وهو أثنى ثمرات الكون ، وألطف المخلوقات وأكملها ، وأسعد ذوي الحياة ، ومخاطب رب العالمين ، وأهل ليكون خليله ومحبيه .

حتى إن جميع المزايا الإنسانية ، وجميع مقاصد الإنسان العليا مرتبطة بالتوحيد ، وتحقق بسرّ التوحيد ، فلولا التوحيد لأصبح الإنسان أشقى المخلوقات ، وأدنى الموجودات ، وأضعف الحيوانات ، وأشدّ ذوي المشاعر حزناً وأكثرهم عذاباً وألماً . . . »^(١) إلخ .

ثم ضرب النورسي أمثلة لذلك من العقل ، والشفقة والحنان ، والمحبة وجميع مطالبه الدقيقة ومقاصده الكلية التي لا تتحقق بغير سرّ التوحيد .

وهذا المعنى مستمد من قول الله تعالى في بيان تحقيق مقاصد الإنسان بسبب التوحيد : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩] هذا

مثل للمشرك والموحد ، فمن كان مشركاً يتنازعه الشركاء ، ومن كان واحداً لا نزاع فيه أو معه ، والله واحد لا نزاع بين عباده المؤمنين به ، ويرعاهم بفضله ، على عكس الشيء المشترك ، يثور النزاع بين الشركاء فيه .

هـ - حب الإنسان للبقاء :

الإنسان بطبعه أو فطرته يحب الحياة والبقاء في الدنيا ، ويكره الموت والزوال عن عالم الدنيا ، لما فيها من إغراءات ولذائذ وشهوات ، ولتخوفه من مخاطر الفناء والحساب ، وجهله بما عند الله تعالى من ألطف المكارم والعطايا ما لا يوازيه شيء في الدنيا ، وكذلك يحب الإنسان الخلود والبقاء في الآخرة .

قال النورسي رحمه الله في رسائله : « فمثلاً ، في الإنسان رغبة ملحة شديدة للبقاء ، فلا يحقق له هذه الرغبة إلا من يتصرف في الكون كله بسهولة مطلقة ، يفتح باب الآخرة بعد أن يسد باب دار الدنيا ، كفتح باب منزل وغلق آخر . ففي الإنسان ألوف من الرغبات الإيجابية والسلبية ، أمثال هذه الرغبة ، رغبة البقاء ، تلك الرغبات ممتدة إلى جهة الأبد والخلود ومنتشرة في أقطار العالم كله »^(١) .

وهذا لأن الله تعالى هو الصانع الفاطر الباقي ، فلا حزن على زوال المصنوع لبقاء مدار المحبة في صانعه كما قال النورسي^(٢) ، قال الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . . . ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقال : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦-٢٧] .

(١) ص ١٩ .

(٢) ص ٩٦-٩٧ .

وقال النورسي أيضاً عن الإنسان : « وهو أشد شوقاً إلى البقاء ، وأكثر حاجة إلى الخلود ، بل هو الأجدر به . . وهو الذي يتوسل لأجل البقاء والخلود بأدعية غير محدودة ، فلو أعطي له ما في الدنيا من متع ، لما شَفَت غليله للخلود . . وهو الذي يحب الذي أنعم عليه حباً لحد العباداة ، ويحبيه لآخرين ، وهو المحبوب أيضاً . . . »^(١) . « وكما أنه يحب البقاء في الدنيا الفانية ، فهو يتوق إلى بقاءه في الدار الباقية »^(٢) .

ومسايرة لحب الإنسان في البقاء والخلود الأخروي ، دعا جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام إلى الحياة الباقية والسعادة الأبدية ، وبشروا البشرية بها ، وأثبتوا صدق دعواهم بما لا يحدُّ من المعجزات والدلائل القاطعة . قال النورسي : « فهل من الممكن لهذا الخالق الجميل ، الصانع الجليل ، الله ذي الكمال ، ألا يجعل دار ثواب وجزاء ؟ وألا يقيم الحشر والنشر لنوع الإنسان الذي يقابل بالشعور والعقل في هذه الدنيا الفانية جميع مقاصد ذلك الخالق الكريم ، والذي يحب ذلك الخالق ، ويحبيه بجميع استعداداته ، والذي يعرفه ويعرفه ، ويتوسل إليه بأدعية لا حد لها لبلوغ السعادة الأبدية والبقاء الأخروي . . »^(٣) .

و - سجايا الإنسان من خصائص صفات الله :

الإنسان مدين بطبائعه وسجاياه الحميدة وخصاله الفريدة ، وتحقيق حاجاته لله وحده الموحد الكامل في ذاته وصفاته ، لأنه صاحب

(١) ص ٢٧٣ .

(٢) ص ٢٧٧ .

(٣) ص ٦٣٩ .

الجمال الإلهي ، والكمال الرباني اللذين يظهران في التوحيد وفي الوحدانية ، فالإنسان إذا أحسن فعل شيء وإتقانه ، فلأن الله هو المتقن ، وإذا أعطي شيئاً فلأن الله تعالى هو المعطي وهو واسع السخاء والجود ، وإذا صبر فتصبير الله ، وإذا اطمأن فيإرضاء الله : ﴿أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ تَطْمِينُ الْقُلُوبِ﴾ [الرعد : ٢٨] وإذا منع شيئاً عمن لا يستحق فلأن الله هو المانع ، وهكذا جميع أسماء الله الحسنى تنعكس آثارها على الإنسان في حالته المعتدلة ومزاجه الصحيح ، قال النورسي رحمه الله : « إن مقام الإنسان الراقي وتفوقه على سائر الأحياء وامتيازه عليها ، إنما هو لسجاياه السامية ، ولاستعداداته الفطرية الجامعة ، ولعبوديته الكلية ، ولسعة دوائر وجوده . . هذا الإنسان يكسب سجايا المروءة والمحبة والأخوة والإنسانية على أساس حاضره الضيق ، وتحدد عنده على وفق مقاييسه وموازينه المحدودة . . » (١) .

ز - تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات :

ميّز الله تعالى الإنسان وفضله على أكثر بقية المخلوقات الكونية ، الحية والجمادة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وقد أوضح النورسي رحمه الله هذه الظاهرة ، فقال في أكثر من موضع من رسائله : « كذلك الأمر في الكائن الحي الذي هو في نهايات دائرة الكثرة ، ولا سيما الإنسان ، وبخاصة من حيث العلامات

الفارقة الموجودة على وجهه ، ومن حيث ما في قلبه من فهرس ، ومن حيث ما في ماهيته من نتائج ، تتوجه كلها إلى الذي يمسك السموات والأرض بربوبيته الجليلة ، وتشهد على وحدانيته جل وعلا»^(١) .

وفي مناسبة أخرى قال النورسي : « وعلى وجه الإنسان تشاهد علامة وحدانية يبينها وجود العلامات الفارقة في وجه كل إنسان ، بحيث تميّزه عن جميع الوجوه الأخرى في الأرض كافة»^(٢) .

ح - الإنسان عالم مصغر عن الكون :

يرى النورسي أن الإنسان نموذج مصغر لخريطة الكون ، فهو كون مصغر ، وكل إنسان عالم أصغر ، لما اشتمل عليه من تركيب دقيق وعظيم وشامل ، فهو بذرة معنوية لشجرة الكون ، ومرآة رقيقة لأكثر السمات الإلهية ، فقال : والمؤمن لو نظر إلى الكائنات ، وأبصرها ببصر الإيمان يجدها على صورة إنسان كبير ، متسريل بسبعين ألف حلّة قشبية مخيطة بالرحمات والخيرات والحكم ، بعضها فوق بعض ، كأنها حورية من الجنة ، لبست سبعين حلّة من حللها ، ويجدها باسمه دوماً بالرحمة ضاحكة مستبشرة ، ويشاهد نوع الإنسان الذي فيه كوناً مصغراً ، وكل إنسان عالماً أصغر . وأضاف قائلاً :

إن الذرة والجزء والعجز والعجز والنواة والإنسان ليست بأقل صنعة وجزالة من النجم ، والكل ، والكلبي ، والشجر ، والعالم . الإنسان الذي هو كون صغير ليس بأقل إبداعاً من الكون العظيم ، من حيث إنه في أحسن تقويم ، ويملك أجهزة خارقة جامعة مهياة للقيام بألوف الوظائف العجيبة .

(١) ص ٢٧ .

(٢) ص ٣٩ .

والله الذي جعل الإنسان أشبه ببذرة معنوية للعالم ، وثمره جامعة له ، ومظهر لجميع أسمائه الإلهية ، ومرآة لها ، ومرتبطة بالكائنات كلها وخليفة للأرض^(١) .

ط - الإنسان عاجز ضعيف فقير محتاج لربه :

الإنسان ضعيف أمام قدرة الله المطلقة غير المحدودة ، فيحس بأعماق نفسه أنه محتاج إلى ربه ، فقير لإمدادات خالقه ، فلا يستغني عنه لحظة واحدة ، في أي حركة وسكنة ، أو في صحة أو عافية ومرض ، أو في غنى وفقر أو في رزق وعدم ، أو في منصب وجاه وذل وانكسار أو في غير ذلك من الأحوال ، بسبب الحاجة إلى القوة والمدد والتوفيق الإلهي ، قال الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] . وهذا ما عبّر عنه النورسي رحمه الله في مناسبات كثيرة ، فقال في رسائله : « وكذا الإنسان بضعفه وعجزه وفقره وجهله يؤدي وظيفة المرأة - بشكل آخر - إذ يشهد بها على صفات من يرحم ضعفه وفقره ، ومن يمد عجزه ، أي يشهد على قدرته جل وعلا ، وعلى علمه وعلى إرادته ، وهكذا على سائر صفاته الجليلة^(٢) » ، وقال أيضاً : « يجد الإنسان بانتسابه إلى السلطان ذي الجلال - بالإيمان والعبودية - مستنداً قوياً ، ومرتكزاً عظيماً يحتمي إليه في دفع أعدائه كافة ، ويجد فيه كذلك مدار استمداد يستغيث به لقضاء حاجاته وتلبيته رغباته وآماله كافة^(٣) .

(١) ص ٢٧ ، ٦٤٥ ، ٧٠٢ .

(٢) ص ١٢ ، وانظر أيضاً : ١٩ ، ٢٣ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ١٩٦ .

(٣) ص ٢٦٠ .

ويقول أيضاً عن الإنسان : « وهو الأكثر فاقة وعجزاً من بين أحياء الكون ، وهو الكائن الحي العاجز الفقير بلا حدود ، مع أن له أعداء ومؤذيات بلا عدّ ، ومقاصد وآلاماً بلا حدّ . . »^(١) .

ي - محبة الإنسان للملائكة :

المؤمن لا يكتمل إيمانه إلا بالإيمان بالملائكة الكرام ، وعليه أن يحبهم ، لأنهم رسل الله ، المفوضون بأمره ، بشؤون العباد ، ومنهم الأربعة العظام : جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل .

فجبرائيل أمين الوحي الإلهي الذي هو نظام الحق لحياة الإنسان ، وميكائيل موكل بإنزال المطر ، وإسرافيل ينفخ الصور لموت الخلائق قاطبة ، وللنشر من القبور ، وعزرائيل الذي يخاف منه الإنسان ، لتوكيله بقبض الأرواح ، يكون للإيمان به ثمرة ، وهو حفظ الإنسان من العبث والضياع والفناء قبل مجيء الأجل الحتمي .

وللإيمان بالملائكة الموكلين بتسجيل أعمال الإنسان بأمانة فائدة مهمة جداً هي حفظ أعمال الإنسان من الضياع^(٢) ، فهو المحقق لدخول الجنة بأمر الله ، وهم الذين يصورون أعمال الإنسان في مناظر خالدة ، حتى إن وجود ملائكة الشمال مفيد أيضاً ، لإثبات ظاهرة العدل بين الناس قاطبة .

ك - تدوين أفعال الإنسان :

إن الصانع الجليل يدوّن أعمال الإنسان صغيرها وكبيرها ولا يضيع منها ذرة واحدة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا

(١) ص ٢٧٣ .

(٢) رسائل النور : ص ٣١٨-٣١٩ .

تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَلَيْسَ بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيْبٍ ﴿ [الأنبياء : ٤٧] . وهذا ما أدركه النورسي بدقة قائلًا : « وهل يمكن لهذا الحاكم الحكيم ، العليم الرحيم ، ألا يسجل أعمال الإنسان التي تتعلق بالكائنات ؟ وهل يمكن ألا يدون أفعاله للشواب والعقاب ، ولا يكتب سيئاته وحسناته في ألواح القدر ؟ حاشا لله وكلا بعدد حروف ما كتب في اللوح المحفوظ المقدر »^(١) .

● تكريم الإنسان وتسخير الكون له :

كرّم الله الإنسان أيما تكريم ، وجعله أكرم مخلوق ، وأفضل كائن حي ، وزوّده بطاقات هائلة لبناء حياته ، وخلقه في أحسن تقويم ، وسخّر له جميع ما في السموات والأرض ، من أجل عيش كريم ، وحياة سعيدة ، وهذا ما دلت عليه النصوص القرآنية الكثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿ ﴿ وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، وقال سبحانه : ﴿ ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] ، وقال عز وجل في تسخير المواد الكونية والذخائر الأرضية للإنسان : ﴿ ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [لقمان : ٢٠] ، ﴿ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [البقرة : ٢٩] أي : جعل جميع ذخائر الأرض وثرواتها من معادن وقدرة على الإنبات وغيرها مختصة بالناس على جهة الانتفاع والاستثمار والاستنباط .

وردد النورسي رحمه الله هذه المعاني القرآنية كلها في رسائله ،

(١) المرجع السابق : ص ٤٦ ، ٢٩٩ .

فقال عن كون الإنسان أفضل مخلوق : « فما دام الأمر هكذا ، فإن دعاءً للسعادة الأخروية والبقاء والخلود - وهو أفضل دعاء وأعمه ، ويمس جميع الكائنات ويرتبط بجميع الأسماء الحسنی ، وبجميع الصفات الجليلة - هذا الدعاء يسأله أفضل مخلوق - وهو الإنسان - ويضمه ضمن أديته أعظم عبد وأحبه إلى الله ، ذلك الرسول الأعظم ﷺ » (١) .

وقال عن كون الإنسان مخلوقاً كاملاً في خلقه وتكوينه وجماله : « لأن كل ذي شعور يعلم أن الله سبحانه قد خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم ، ورباه أحسن تربية ، وزوّده من الأجهزة والأعضاء - كالعقل والقلب - ما يتطلع به إلى السعادة الأبدية ويسوقه نحوها . . . » (٢) .

وقال عن ادخار خيرات الأرض للإنسان : « وما دام لابن آدم - الذي له هذه الماهية والمزايا خلقاً وطبعاً ، وله حاجات لا تُحَدُّ مع ضعفه الشديد ، وآلام لا تُعَدُّ مع عجزه الكامل - ربٌّ قدير ، له من القدرة والرأفة المطلقة ما يجعل هذه الأرض الهائلة العظيمة مخزناً عظيماً لأنواع المعادن التي يحتاجها الإنسان ، ومستودعاً لأنواع الأطعمة الضرورية له ، وحانوتاً للأموال المختلفة التي يرغبها ، وأنه سبحانه ينظر إليه بعين العناية والرأفة ، ويربّيه ، ويزوّده بما يريد » (٣) .

وحول أهمية الإنسان عبّر النورسي بتعبير موجز عن مدى تلك

(١) ص ٢٦٥ ، وانظر أيضاً : ص ١٩٤ ، ٢٧٩ ، ٧٠٢ .

(٢) ص ٢٦٨ ، وانظر أيضاً : ص ٧٠٢ .

(٣) ص ٢٣٦ ، وانظر أيضاً : ص ٦٣٥ ، ٧٠٢ .

الأهمية ، فقال : « وهكذا فقد منح سبحانه جامعة من جهات كثيرة جداً ، ووهب له من الاستعداد ما يجعله مرآة كاملة لأحدثه وصمدانيته ، ويمكنه من أن يلبي بعبودية كلية واسعة ، ربوبية كلية مقدسة »^(١) . وقال أيضاً : « وإن إيجاد حياض رحمة كهذه للإنسان القادم ضيفاً إلى مضيف الدنيا هذه ، وتسخيرها لسيره وسياحته ولسفينته ولمنافعه . . . يشير إلى أن الذي يكرم ضيوفه في ليلة واحدة ، في دار استراحة شيدها لهم على طريق سفرهم ، بهذا الكرم العظيم من هدايا البحار وعطاياها . . لا بد أنه قد أحضر في مقر سلطنته الأبدية بحار رحمة أبدية واسعة ، بحيث إن المشهوده منها هنا ليست إلا نماذج فانية وصغيرة أمام تلك الأبدية »^(٢) .

● تكليف الإنسان وإعداده المادي والمعنوي :

كان من عظيم التكليف الإلهي للإنسان تكليفه بالتكاليف الشرعية ، المعبر عنها بكلمة « الأمانة » في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] لأن من المعلوم أن التكليف ومناطه العقل الإنساني والطاقة الفكرية دليل على أهمية الإنسان ، واللطف به ، وجعله محلاً للمسؤولية أو المساءلة عن جميع أقواله وأفعاله ، فتعطيل المسؤولية وترك الإنسان من غير تكليف يدل على إهماله وعدم المبالاة به ، وتركه يهيم في حياته كالحيوان في البراري .

وقد زوّد الله تعالى الإنسان بالإضافة إلى تكوينه الجسدي المادي لتحمل مسؤولية التكليف ، مفاتيح المعرفة وأدوات العلم ، وموهبة

(١) ص ٧٨ .

(٢) ص ٥٥ .

العقل وطاقه الفكر ، ليميز بين الخير والشر ، ويدرك حقائق الأشياء ، ويعمل على ما فيه خيره ، وتجنب كل ما فيه ضرره .

قال النورسي رحمه الله في رسائله : « فمثلاً العقل الذي هو أفضل أجهزة الإنسان وأرقاها ، إن استعمل بسر التوحيد ، فإنه يصبح مفتاحاً ثميناً بحيث يفتح الكنوز الإلهية السامية ، وألوفاً من خزائن الكون ، بينما إذا تخبط ذلك العقل في وحل الضلالة والكفر ، فإنه يصبح آلة تعذيب ووسيلة إزعاج ، بما يجمع من آلام الماضي الحزينة ومخاوف المستقبل الرهيبة .

ثم مثل بالشفقة والحنان ، وهي ألطف سجية من سجايا الإنسان وأحلاها ، وبالمحبة التي هي ألد شعور في الإنسان وأطيبه وأسماه ، للدلالة على قيم الإنسان وكونه يسع الكون وله سلطان على المخلوقات كلها^(١) .

ثم قال مبيناً مدى الإخلال بالمسؤولية الكبرى وإهدار قيمة التكليف الإلهي بالإيمان والعبادة وأداء الحقوق وارتكاب الجناية العظمى : « إن كفر الإنسان إنما هو تجاوز - أي تجاوز - على حقوق الكائنات وأغلب المخلوقات ، مما يثير غضب السموات والأرض ، ويملاً صدور العناصر حنقاً وغيظاً على الكافرين ، حتى تقوم تلك العناصر بصفع أولئك الظالمين بالطوفان وغيره ، بل حتى الجحيم تغضب عليهم غضباً تكاد تتفجر من شدته ، كما هو صريح الآية الكريمة : ﴿ إِذَا الْقَوَا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴿٨﴾ » [الملك : ٨٧] «^(٢) .

(١) ص ١٩ .

(٢) ص ٣١٢ .

إن الإعداد المادي والروحي للإنسان مظهر كمال ، ودليل رفعة ، وعلو شأن ، وتهيئة للدرجات العليا في الدنيا ، وفي عالم الخلود في الآخرة . ومن أخص مزايا رسائل النور للنورسي أنها تخاطب جميع لطائف الإنسان ، مبينة أن القرآن « يخاطب العقل والروح والوجدان » معاً بحيث يلقي الطمأنينة في كل منها ويغذيها ويعطيها نصيبها الوافر منه بسهولة بالغة . كذلك ينبغي أن يكون تفسير القرآن أيضاً بليغاً جداً ونافاذاً إلى الأعماق ، بحيث ينير العقل والقلب والروح والوجدان والنفس وغيرها من اللطائف الربانية في الإنسان ، مع إلزام صارم للشيطان وطرد لهزmates ، وحفظ النفس من وساوسه^(١) .

● توجيه الإنسان لتحقيق الهدف من إيجاده ، أو إعداده للحياة الأبدية :

الإنسان كما يفهم من كلام النورسي وسيلة وهدف ، فهو وسيلة لإعمار الكون ، وهدف أو غاية ، وهو أن يكون عابداً لله عز وجل ، ومُعَدّاً للحياة الأبدية ، أما عبادة الله عز وجل : فلأن الدنيا مزرعة الآخرة ، والغاية الكبرى من وجوده وتكليفه : إنجاؤه من النار ، وظفره بالخلود في جنات الخلد والنعيم ، وطريق ذلك هو عبادة الله تعالى لقوله سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

استفتح النورسي رحمه الله مقدمة رسائل النور من الشاعات بهذه الآية ، ثم قال : « يفهم من أسرار هذه الآية الجليلة : أن حكمة

(١) بديع الزمان سعيد النورسي ، نظرة عامة عن حياته وآثاره ، للأستاذ إحسان قاسم الصالحي : ص ١٥١-١٥٢ .

مجيء الإنسان إلى هذه الدنيا والغاية منه ، هي : معرفة خالق الكون سبحانه ، والإيمان به ، والقيام بعبادته ، كما أن وظيفة فطرته ، وفريضة ذمته ، هي : معرفة الله والإيمان به ، والتصديق بوجوده وبوحدانيته إذعاناً وبقيناً^(١) .

أي إن وظيفة الإنسان الفطرية ، هي : عبادة الله وتقديسه وتوحيده وتزيهه عن مشابهة الحوادث ، بل كل حيوان يؤدي عبادته الخاصة به ، بلسان الحال أو المقال ، مسبحاً خالقه وبارئته ومعبوده ، مقدساً إياه من القصور والشرك ، حامداً شاكرراً لأنعمه وآلائه^(٢) .

وقال النورسي أيضاً : ولما كانت هذه الدنيا مزرعة الآخرة ، فالحقائق الصغيرة التي فيها تثمر وتتسبل في الآخرة . وفي موضع آخر قال : وهكذا في كل موجود مخزن ، حتى إن مخزن الآخرة هو دار الدنيا ، ومزرعة الجنة ومستودعها : هو عالم الإسلام ، وعالم الإنسانية الحقة ، الذي تنبعث منه الحسنات والحسن والأنوار^(٣) .

وأما الإعداد للحياة فمزدوج ، فهو إعداد للحياة والروابط الاجتماعية الإنسانية في الدنيا ، من أجل التعاون على ظروف الحياة وتنمية المشاعر الإنسانية ، وإعداد أيضاً للحياة الأبدية وعالم الخلود في الآخرة ، قال النورسي رحمه الله : « الناس يحبون خالقهم محبة خالصة بفطرتهم ، وخالقهم يحبهم ويحبب نفسه إليهم بكل وسيلة ، واستعداد الإنسان وأجهزته المعنوية تتطلع إلى عالم آخر باق ، وإلى

(١) ص ١٣٥ .

(٢) ص ٦٣ .

(٣) ص ٢٨٩ ، ٦٣٥ .

حياة أخرى أبدية ، وإن قلبه وشعوره ليطلبان البقاء ، ويتوقان إليه ، وإن لسانه ليتوسل إلى خالقه بأدعية غير محدودة طالباً البقاء»^(١) .
 وفي تعليقه على آية : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] ، قال : نعم ، حسبي من بقاء الدنيا وما فيها بقاء مالکها وصانعها وفاطرها . حسبي من بقائي : أن الله هو إلهي الباقي ، وخالقي الباقي ، وموجدي الباقي ، وفاطري الباقي ، ومالكي الباقي ، وشاهدي الباقي ، ومعبودي الباقي ، وباعثي الباقي^(٢) .

وفي موضع آخر قال : « ومن هنا غدا الإنسان متمكناً من العمل للحياة الأبدية ، وهو ينظر إلى فناء الدنيا ، ويعمل في الوقت نفسه لعمارة الدنيا ، وكأنه يعيش أبداً »^(٣) .

وفي مقالة أخرى يدمج النورسي بين الحياتين الدنيوية والاجتماعية ، والأخروية ، فيقول : « كما أن الإنسان - خلافاً للحيوان - ذو علاقة مع بيته ، فهو أيضاً ذو ارتباط وثيق في الدنيا ، ومثلما أنه مرتبط بأقاربه بروابط ووشائج ، فهو كذلك ذو نسب فطري بالجنس البشري ، وكما أنه يحب البقاء في الدنيا الفانية ، فهو يتوق إلى بقائه في الدار الباقية ، وما دام جميع لذائد الدنيا لا تشبع الخيال ، الذي هو أحد خدام الماهية الإنسانية ، فلا بد أن حقيقة الماهية الإنسانية الجامعة الشاملة جداً مرتبطة فطرةً بالخلود والبقاء »^(٤) .

(١) ص ٦٢ .

(٢) ص ٩٧ .

(٣) ص ١٠٦ .

(٤) ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

وللإيمان بالآخرة فوائد كثيرة ، من أهمها الرضا بالمصيبة ، والتفاعل بها ، وتفويض أمر تجاوزها أو حلها إلى الله تعالى ، فهي بتقدير الله وإذنه ، قال الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] ، وقال سبحانه : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١١] .

وجود الإنسان نفسه دليل على وجود الآخرة ، بما هو مضمّر في النفس البشرية من الآمال والأشواق والمطالب الروحية ، وقد علق النورسي على آية لذائد الجنة : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف : ٧١] ، فقال : « تبين أن أكثر ما يأنس الإنسان به من اللذائد المادية المحسوسة - والذي يتذوق نماذجها في الدنيا - سيرها ويتذوقها بصورتها اللائقة بالجنة . . . وهكذا تظهر ثمرات الإيمان بالآخرة ونتائجه : أنه مثلما تدل حقيقة معدة الإنسان وحاجاتها دلالة قاطعة على وجود الأطمعة ، فإن حقيقة الإنسان وكمالاته وحاجاته الفطرية وآماله الأبدية وحقائقه واستعداداته ، تتطلب النتائج والفوائد المذكورة للإيمان بالآخرة ، وتدل قطعاً على الآخرة ، وعلى الجنة ، وعلى لذائد مادية محسوسة باقية ، وتشهد على تحققها . وإن حقيقة كمالات هذا الكون أيضاً ، وآياته التكوينية الحكيمة ، وجميع حقائقه المرتبطة بالحقائق الإنسانية ، تدل دلالة قاطعة أيضاً على وجود الآخرة وعلى تحققها ، وتشهد شهادة صادقة على مجيء الحشر وانفتاح أبواب الجنة والنار »^(١) .

● مخاطبة جميع الناس :

لم يقصر القرآن الكريم خطابه العقدي والتشريعي على المسلمين فقط ، وإنما وجه الخطاب لجميع الناس ، لأن رسالة الإسلام خالدة وعامة للجنس البشري كله ، في مختلف البلاد والأزمان . والداعية النورسي إلى الإيمان بالقرآن الكريم كان منهجه أيضاً موجهاً للإنسان والإنسانية ، دون تمييز بين أحد في الجنس والعنصر واللون واللغة . قال في مقدمة الخطبة الشامية المشهورة :

« إن رسائل النور التي هي تفسير حقيقي للقرآن - وذلك بسر إعجازه - إذ تثبت كما أن في الانغماس في مهاوي الضلالة جحيماً معنوياً في هذه الدنيا ، تؤكد أن في الإيمان نعيماً معنوياً في هذه الدنيا أيضاً . وهي تبرهن كذلك ، كما أن في المعاصي والفساد والمتع المحرمة آلاماً مبرحة روحية ، فإن عمل الحسنات والخصال الحميدة ، والالتزام بالحقائق الشرعية لذائد روحية ، أشبه ما تكون بملذات الجنة ، وهكذا فإنها بذلك تنقذ أهل السفاهة وأرباب الضلال من التمادي والاستمرار ، ما دامت لهم مُسكة من عقل ، وذلك لأن عصرنا هذا يتميز بطابعين عجيبين :

الطابع الأول : هو التعامي عن رؤية العاقبة وترجيح درهم من اللذة المائلة على كثير من اللذات الآتية . . وما ذلك إلا بسبب طغيان المظاهر المادية على عقل الإنسان وفكره . والسبيل الوحيد لإنقاذ أهل السفاهة من الناس من سفههم هو : إظهار الألم المبرح في تلك اللذات عينها والغلبة على حسهم .

الطابع الثاني : إن الضلال المترتب على الإلحاد والعلوم الطبيعية

والتمرد المتولد عن الفكر العنادي في الماضي ليعتبران من الضلالة بحيث لا تذكر ، إذا ما قيس بما عليه الوضع في وقتنا الراهن^(١) .

● هل حقق الإنسان رسالته في الحياة ؟

الإنسان في الجملة حقق في تقديري رسالة الخلق والإيجاد وتعمير الكون وبناء الدنيا ، بغض النظر عن الإيمان والكفر ، والاستقامة والضلال ، بدليل هذا التقدم الزراعي والصناعي والتجاري والتقني الذي فاق في القرن العشرين كل ما عرفه التاريخ الإنساني من ألوان الابتكار أو الاختراع والإبداع . وذلك كله بتوفيق الله وإلهامه وتعليمه المكتشفين والمخترعين .

لكن بعض الناس بَتَرُوا رسالتهم في الحياة عن غايتها الكبرى ، فقصروا عملهم على الدنيا وعلومها ، وإنجاز ما يناسبها ، وقطعوا صلّتهم بالآخرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] .

وهناك بعض آخر عملوا لآخرتهم غالباً وأهملوا دنياهم ، وهم فئة قليلة ، لأن الله تعالى أراد العمل للدنيا والعمل للآخرة معاً .

والفئة الثالثة وفقوا لتحقيق المقصود من الخلق ، فنجحوا في مهام الدنيا ، ولم ينسوا تعمير الآخرة بالتقوى والعمل الصالح .

وهذا التصنيف الثلاثي أرشد إليه القرآن مخبراً عنهم ، فقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] .

(١) بديع الزمان سعيد النورسي ، الأستاذ إحسان قاسم الصالحي : ص ٢١٩-٢٢١ .

وأمام هذا التصنيف لا بد من جهود المصلحين ، لإصلاح المنحرفين وتقويم المقصرين ، وترغيب العاملين ، أمثال النورسي رحمه الله وأمثاله من الدعاة المخلصين إلى الله تعالى ، ومنهج النورسي في الإصلاح : هو الربط الدائم بين الآيات الكونية في طبيعة الإنسان الجسمية والروحية ، وبين الدلالات العقدية لتلك الآيات ، قال مشفقاً على بعض الناس وهم البائسون الضعفاء العاجزون :

« لقد كنت أتألم لحال ذوي الحياة ، ولا سيما لذوي الشعور منها ، وبالأخص لحال الإنسان ، وبخاصة المظلومين والمبتلين بالمصائب منهم ، لما أحمل من عطف متزايد وشفقة مفرطة ، فكانت أحوالهم تمس عظمي ، وتثير شفقتي ، وتوجع قلبي وتعصره »^(١) .

ومنهجه في تصفية الخصومات أو المنازعات البشرية : هو الصلح بين المتخاصمين ، قال : « نعم ، إن المصلحة والحقيقة في الصلح ، والصلح خير ، لأن الأجل واحد لا يتغير »^(٢) . ومصدر المعرفة للإصلاح : إنما هو القرآن الكريم الذي يغترف منه جميع أهل العلم والمعرفة والخبرة ، فهو الذي يرشد إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

* * *

(١) ص ١٢ .

(٢) ص ٥٣١ .

الخلاصة

لقد انتهيت بحمد الله إلى نتيجة محكمة في خاتمة هذا البحث عن الإنسان في القرآن الكريم بمنظور رسائل النور ، وهي أن عمالقة الإصلاح في العالم هم الذين يعانون في سبيل دعوتهم أشد الصعاب ، فيعذبون ، ويشردون ، ويسجنون ، ويقاومون على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية . وقد سُجن النورسي وشُرد وطُرد مراراً من وطنه . والنورسي رحمه الله عانى في سبيل نشر دعوة الله تعالى في الأرض معاناة شديدة ، ولعل هذه المعاناة سبيل لقدح زناد الفكر لديه ، وإخلاص العمل لله رب العالمين .

وكان السجن والتعذيب مفجراً للطاقات الفكرية والدينية والإنسانية في قلب النورسي وعقله ونفسه ، فظل قائماً بحملته الإصلاحية الجامعة بين المادة والروح ، وعبر عن نفسيته وصبره وجهاده بتعابير صادقة وواقعية ومؤثرة تأثيراً شديداً في سامعيه . فكان حديثه سلوة ، وسيرته عطرة ، وبيانه عذبا ، ومنهاجه وضاءً ، حتى إني لأسميه : « أمير البيان في تبيان معاني القرآن » وهو مع ذلك « أمير البيان في فهم وإدراك حقيقة فلسفة عقيدة الإسلام » .

لقد تحدث النورسي عن الإنسان في القرآن حديث الروح إلى الروح ، فأبان حقيقة تكوين الإنسان المادية والمعنوية أو الروحانية ، وأدرك مدى كماله ورقيه ، وعرف أنه أكرم مخلوق وأنه مخلوق في أحسن تقويم ، وقرر بلسان العالم الكبير أن الإنسان شاهد على

وجود الله تعالى ، ودليل على وجود عالم الآخرة ، وهو معد إعداداً مناسباً للحياة الأبدية ، وأن الله يحبه وهو يحب الله ، ويحب ملائكة الله ، ويؤثر الخلود في الآخرة ، ويحب البقاء في الدنيا ، والخلود في الآخرة ويتميز بقوة حافظته ، وهو أيضاً عالم مصغر عن الكون ، وهو وسيلة للحياة وهدف لتعمير الكون وعبادة الله ، وتدوّن أعماله وأفعاله عليه ، فلا يضيع منها شيئاً ، وهو مكرّم ومعزّز ، والكون كله مسخّر لخدمته ، وهو ذو أهمية ملحوظة ، فلقد كوّن الله ، وأبدع خلقه في أحسن تقويم ، وجعله أهلاً لتحمل المسؤولية والتكاليف ، أو الأمانة ، وهي تلازم الكرامة الإنسانية ، ومن تكريم الله للإنسان : تسخير طاقات الكون وذخائره ومعادنه لخير هذا الإنسان ، وجعله خليفة الأرض ، ومظهر تجليات الأسماء الحسنیٰ فيه ، وهو ذو هدف واضح وهو العمل على عبادة الله تعالى .

* * *

حقوق الإنسان بين العالمية والخصوصيات الثقافية

(العصور الإسلامي)

سبق الإسلام إلى تبني حقوق الإنسان فكراً وعقيدة ونظاماً^(١) :

بقيت نزعة حقوق الإنسان في الضمير الإنساني في العالم القديم والوسيط مجرد شعور فطري وإحساس ديني وفلسفي لدى دعاة الإصلاح والمفكرين ، وعلى يد الأنبياء والمرسلين والفلاسفة ، ولم تتقرر نظرياً وديناً على أنها نظام تشريعي وواقع تطبيقي إلا في مظلة الإسلام ، وفي صريح نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فقد أعلنها هذا الدين مبدأً عاماً في نظامه وعلاقاته مع الأمم والشعوب الأخرى وأتباع الأديان السابقة ، وجعلها إحدى ركائز التشريع الإلهي ، ومن أصول الدين الحق ، ومن قواعد الأخلاق ونظام القضاء ومنهج الحياة الإنسانية ، في الربع الأخير من القرن السادس الميلادي ، وكان للإسلام فضل سبق والإعلان والتطبيق لهذه الحقوق الاجتماعية ، وتحريك الضمير الإنساني ، والوجدان البشري إلى ضرورة الاعتراف بهذه الحقوق ، وتنبيه الناس قاطبة إلى وجوب إقرارها واحترامها بصفتها النظامية والفكرية ، وعلى مدى

(١) محاضرة في مسجد الدعوة - باريس في ٤/١٢/١٩٩٩ م أثناء ندوة مطولة من الساعة الثانية ظهراً حتى الثامنة مساءً مع مجموعة باحثين فرنسيين في جامعة السوربون وغيرها ومشاركة المحامي الكبير عبد الله بلو من بنية - إفريقية .

التاريخ الإسلامي بصفته السياسية ووجوده الدولي ، وصفته الأخلاقية والعقدية ، قبل ظهور هذه الفكرة والدعوة إليها في القرن الثامن عشر الميلادي الذي وصف بأنه قرن حقوق الإنسان .

وكان الفضل في الغرب في إعلان شرعة حقوق الإنسان لما صاحب الثورة الفرنسية من أفكار الفلاسفة الاجتماعيين ، فصدرت وثيقة حقوق الإنسان والمواطن في (٤) من شهر آب (أغسطس) عام ١٧٨٩ م ، ومطلعها : « يولد الناس أحراراً ومتساوين في الحقوق » وتضمن الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان ١٧ مادة . وسبق ذلك في إنجلترا إعلان بعض الحقوق في أعوام ١٦٢٧ م و ١٦١٨ م و ١٦٧٩ م و ١٦٨٨ م ، وصاحب إعلان الاستقلال في أمريكا عام ١٧٧٦ م إعلان الاعتراف ببعض الحقوق كحق الحياة والحرية ، والمساواة بين الناس .

وبرزت في أوائل وأواسط القرن العشرين وثائق دولية عن حقوق الإنسان ، وأهمها إعلان هذه الحقوق سنة ١٩١٩ م في عهد عصبة الأمم ، وتبعه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في ١٠/١٢/١٩٤٨ م الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة ، في ٣١ مادة ، تضمنت إقرار حق الحياة والحرية الشخصية والمساواة ، وحرية الرأي والتعبير ، وحرية التفكير والضمير والدين ، وتأسيس الأسرة ، وحق التقاضي وإلغاء الرق والاستعباد ، والحق في الجنسية ، والتملك ، وتكوين الجمعيات والجماعات السلمية ، وإدارة البلاد ، وكون إرادة الشعب هي مصدر الحكم ، والحق في الضمانات الاجتماعية والعمل والراحة والتعليم والتعلم ، وحقوق الفرد وحقوق المجتمع ، وإلزام الدول باحترام الحقوق والحريات .

عوامل ظهور حقوق الإنسان بين الدول :

كان إعلان وثيقة حقوق الإنسان والمواطن في فرنسا في العشر الأخير من القرن الثامن عشر رداً على ما كان سائداً في العهود البائدة من مظالم وتعسف ومخازر واستبداد ، كالأضطهاد الديني ، ومصادرة الأموال ، وامتهان الكرامة الإنسانية ، وإهدار الحرية الشخصية ، والإمعان في النظام الطبقي ، ونبذ فكرة المساواة بين المواطنين بل والبشر جميعاً .

وكان من أهم أسباب تقرير حقوق الإنسان في العالم بعد القرن الثامن عشر ، وخاصة في القرن العشرين : التحرر من الاستعمار ، ومن ضغط الحكومات المحلية أو الإقليمية ، ومن مظاهر العنف والذل والتخلف ، ثم إصدار المواثيق الدولية لحقوق الإنسان ، والعمل على حمايتها ، ولكن كان ذلك في الغالب نظرياً لا عملياً .

فما بعد ظهور المواثيق الدولية المذكورة ، وجد تناقض بين النظرية والواقع ، فلقد صيغت تلك المواثيق متأثرة بعناصر الاستعلاء ، والفوقية ، والاعتماد على أسلوب القوة ، والتقدم الصناعي والتقني في مجالات الزراعة والاختراع ، ووسائل الاتصال ، واختراع وسائل الدمار الرهيبة والشاملة ، والعمل على متانة الاقتصاد الصناعي الغربي ، وتخلف الدول النامية في آسيا وإفريقية ، ولم تشترك أكثر الدول المستعمرة الضعيفة في صياغة هذه المواثيق .

وتميز سجل الغرب بعد إعلان هذه الحقوق بالحروب الطاحنة العالمية والمحلية ، والهيمنة الاقتصادية ، والاستعمار بشكليه القديم والحديث ، والقمع الرمزي أو الفعلي للمستضعفين ، والتدخل في شؤون الدول الصغيرة ، ثم ظهور النظام العالمي الجديد بعد انهيار

الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ م وبداية سقوط الشيوعية عام ١٩٨٩ م ، والذي يتضمن محاولة أمريكا الشمالية فرض هيمنتها وسلطانها على العالم بأسره ، ثم ظهور ماسمي بالعولمة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وعالم الاتصال والإعلام ، وهي رمز خفي عن الغطرسة ، وهي تعني سيطرة الدول الكبيرة والغنية على الدول الفقيرة أو الصغيرة .

والعولمة : تعبير عن ديناميكية جديدة تبرز داخل العلاقات الدولية ، من خلال تحقيق درجة عالية من الكثافة والسرعة في عملية انتشار المعلومات والمكتسبات العلمية والتقنية ، إنها توطيد لمعان جديدة وقيم جديدة في إطار السياسة الدولية والاقتصاد الشمولي . والعولمة الثقافية لتصدير ثقافة الغرب وتقاليد ومجونه وتحلله الأخلاقي ، والعولمة الاقتصادية : هي محور الفكر الاقتصادي اليوم ، وهي بؤرة العولمة .

أي إن العولمة : هي دمج العالم في مجتمع عالمي واحد ، وهي ترتبط بالمستجدات الاقتصادية وتهدف إلى إلغاء الحدود الجغرافية ، وإبراز عالم بلا حدود اقتصادية ، حيث يتم النشاط الاقتصادي عبر الشركات العابرة للقارات كشركات السيارات في أمريكا واليابان ، وشركات الاتصالات العالمية مثل شركة (I.T.T) فيصبح العالم قرية واحدة ، ولا يعترف بالثقافات الموضعية أو المصالح المحلية ، فلا يبقى مجال لحقوق الضعفاء ، وتصبح الهيمنة للأقوياء بزعامة أمريكا ، ويبرز عالم بلا حدود ثقافية أو حضارية ، ويظهر دور الإسلام في تنبيه العالم لحقوق الإنسان في مرحلة الاحتكاك بين الشرق والغرب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي ، فقد كانت أوروبا في القرون الوسطى متمركزة حول نفسها ، منغلقة في مفاهيمها وحياتها ،

فقاموا بشن الحروب الصليبية بعد إعلان البابا أوربان الثامن الفرنسي الجهاد المقدس في ١٦/١١/١٠٩٥ م لتحرير مهد السيد المسيح من أيدي المسلمين ، وفي هذه الحروب وأعقابها تعلّم الغربيون من تعاليم الإسلام وسيرة المسلمين الأدبية والإنسانية المعاني الكثيرة والمبادئ العامة في السلم والحرب ، لأن رسالة الإسلام دين الكمال الإنساني والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي والعقدي .

أساس حقوق الإنسان في الإسلام :

حدد التشريع الإسلامي أطر العلاقات الثلاث : علاقة الإنسان بربه ، وعلاقته بنفسه ، وعلاقته بمجتمعه ، وأوضح العلاقة الوطيدة بين الله والإنسان والكون ، وطرق المعرفة ومنهج العبادة ، وتميز الخطاب القرآني بعنايته بالناس ، والإنسان جذر هذه العلاقة ، لأن رسالة الإسلام ذات نزعة عالمية موجهة لجميع الناس ، فتكرر الخطاب بكلمة « يا أيها الناس » ٢٨ مرة ، وجاء لفظ « الناس » ٢٤٠ مرة ، وورد لفظ « إنسان » ٦١ مرة .

وإذا تأخر صدور إعلان رسمي إسلامي من الدول الإسلامية عن الإعلان الدولي ٤١ سنة ، فهو مجرد تأكيد وتقرير لما أعلنه الإسلام منذ فجر دعوته في العالم منذ أربعة عشر قرناً ، ومع ذلك صدر هذا الإعلان في ١٩/أيلول (سبتمبر) ١٩٨١ م في ٢٥ مادة ، تناولت الحقوق الأساسية (حق الحياة والحرية والمساواة) والحقوق السياسية (حرية الرأي والتعبير وتكوين الدولة) وحقوق الأسرة (كونها عماد المجتمع وتكوينها بالزواج وكون المرأة شقيقة الرجل ونصف المجتمع ، وحق الطفولة) وحق التمتع بجنسية معينة ، وحقوق التربية والتعليم ، وحقوق العمل والضمان الاجتماعي ، والكسب الشريف ،

وحق الملكية الخاصة ، وحق التقاضي ، وحق التنقل وحرمة الإنسان حياً وميتاً ، وتقييد هذه الحقوق بأحكام الشريعة الأصلية والأساسية .

يتبين من هذا أن العولمة في أغلب نواحيها ضارة مرفوضة في تصورنا الإسلامي ، لأن لنا ثقافتنا ولنا حضارتنا المتميزة الجامعة بين الروح والمادة ، ولنا قيمنا ومبادئنا التي لا يجوز تجاوزها أو تخطيها ، ووجب الوقوف أمام تحدي العولمة لمنع ذوبان شخصيتنا ، والحفاظ على هويتنا ، وإثبات ذاتيتنا ، والحرص على نشر رسالتنا العالمية .

وأساس النظرة إلى حقوق الإنسان في الإسلام ليس هو مجرد العدل المقتضي للمساواة ، ولا مجرد الحرية المشعرة بوجود الإنسان وحرية ، كما هو المعتبر في الأنظار الفلسفية والقانونية ، ونظرية العقد الاجتماعي التي نادى بها هوبز ولوك وتبناها جان جاك روسو في أوروبا ، فهي أساس حقوق الإنسان في نظرهم لاقتضائها المساواة بين أطراف التعاقد ، وهم الحكام والمحكومون ، وإنما أساس هذه الحقوق في الإسلام بالمعنى الدقيق والشامل : هو إقرار الكرامة الإنسانية أو التكريم الإلهي للإنسان ، وهي تستلزم الاعتراف بالحرية ، والعدل ، والسلام ، والحقوق الضرورية أو الحاجة للحياة الإنسانية في العلم والتربية والعمل والكسب والانتقال وغير ذلك . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] وهي تضع أساس التصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة ، وترشد إلى الفطرة الصحيحة التي فطر « أوجد » الله الناس عليها ، كما في قوله سبحانه : ﴿ فَطَرَتُ اللَّهُ آلِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم : ٣٠] . لذا كان الخطاب التشريعي والعقدي في القرآن الكريم مبدوءاً بـ (يا أيها الناس) غالباً كما تقدم . وما أجمل وأروع هاتين

الآيتين : آية : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] ، وآية : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] . وبعد إعلان ميثاق حقوق الإنسان عام ١٩٤٨ م في الأمم المتحدة ، صار لحقوق الإنسان مدلول عالمي ، لكن ذلك مجرد شعار ، واعتبار نظري في الغالب ، ومن الناحية العملية ظلت خصوصية الثقافة الغربية مهيمنة ، وظلت بصمات الغرب في وقتنا الحاضر هي السائدة والمسيطرة على مفهوم حقوق الإنسان في التأويل والتوضيح والواقعية ، فمثلاً : الختان يقال : إنه عدوان على الإنسان ، مع أنه وضع طبي صحي وفي صالح الإنسان نفسه . ومن ناحية أخرى ، نجد أن خطف أولاد المسلمين أو أخذهم بذرائع مختلفة في أوروبا وأمريكا ، يقصد به تنصير المسلمين وجعله أمراً واقعياً .

وحجاب المرأة المسلمة يقال : إنه عدوان على نظام الدولة ، ومظهر من مظاهر التمييز ، ونرى أن فرنسا تهاجم الحجاب ، وهي تدعو للعمل بحقوق الإنسان واحترامها ، وأما في تركيا حيث ينزع الحجاب ويقاوم ، فلا يتكلم أحد عن منع الحجاب . وأما الباروكة فقد هزىء الغربيون من المسلمة التي ترتديها ، ولكنهم لم يجدوا ذلك ممنوعاً على اليهوديات . وانتقد الغربيون نظام الميراث في الشريعة الإسلامية ، مع أنهم لم يفهموا تكامل هذا النظام وارتباطه بنظام المسؤولية عن النفقات ، فمن يجب عليه الإنفاق يكون حظه من الميراث أكبر من الذي لا يلزم بأي نفقة .

وانتقدوا أيضاً حكم تعدد الزوجات في الإسلام مع أنه قليل التطبيق عملياً ولا يتجاوز في الغالب ٢٪ ، ويبيحون لأنفسهم تعدد العشيقات والعشاق بين الرجل والمرأة ، مع أن الأول منظم ومسؤول ، والثاني فوضوي وغير مسؤول .

مشمولات حقوق الإنسان :

يقر الإسلام ما تضمنه الإعلان العالمي عن حقوق الإنسان في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٨ م ، من الناحيتين النظرية والعملية ، إلا أنه يتحفظ على مواد ثلاث وهي :

١- المادة ١٦ المتعلقة بحق الرجل والمرأة في الزواج وحريةهما في تكوين أسرة ، من غير تقييد بسبب الجنس أو السن أو الدين ، وهذا يتعارض مع أحكام الشريعة الإلهية التي تمنع زواج المسلمة بغير المسلم ، حفاظاً على ما ينبغي أن يقوم عليه الزواج من انسجام وتوافق في الطباع والمعتقدات ، وهذا الزواج يصطدم بمشاعر المرأة التي يريد الرجل - وهو في العادة أقدر من المرأة - فرض معتقده عليها مما يمنع استمرار الزواج وديمومته ، ويعرّض هذه العلاقة للانهايار ، لذا جاء النص القرآني مصرحاً بمنع هذا الزواج ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٢١] .

٢- المادة ١٨ في حق الإنسان في تغيير دينه أو اعتقاده ، وهي تتعارض مع منع المسلم من ترك دينه والارتداد إلى دين آخر ، أو لغير دين ، فإن الإسلام قرر عقوبة القتل في الردة ، لأنها خيانة عظيمة ، وإضمار لعداوة المسلمين والنظام الإسلامي ، ومنعاً من التلاعب بالدين الذي كان اليهود يفعلونه في عصر الوحي والنبوة ، كما حكى القرآن ذلك عنهم : ﴿ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٧٢-٧٣] .

إن الغربيين واليهود خاصة ينظرون للأديان نظرة بشرية ، ليس فيها

تقديس ، مثلما ينظرون إلى عدم تنفيذ أمر عسكري ، فيسيحون بأهوائهم هذا التبديل والتلاعب بالدين ، مع أن العقيدة أقدس شيء في هذا الوجود ، فلا يجوز عقلاً ومنطقاً التلاعب بالأديان ، والإسلام دين الحق ، له قداسته ، وهو دين إلهي : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] فمن بدّل دين الإسلام ، ارتد وعوقب حفاظاً على النظام العام في الجماعة الإسلامية .

أما قبل الدخول في الإسلام فحرية العقيدة ومنع الإكراه في الدين أمر مقرر في الإسلام ، فمن دخل فيه عن اقتناع بحرية تامة قبل منه ، فإذا خرج منه أضمر العداة ، وأظهر الحرابة ، وتراجع عن القناعة ، فلم يعد له قصد سليم ولا نية حسنة ، قال الله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [النحل : ٩٣] ، وقال عز وجل : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

[يونس : ٩٩] .

ونشر دعوة الإسلام ذو مظهر عالمي ، فلا يجوز التلاعب بالأديان ، وحرية اعتناق الدين مكفولة في الإسلام لغير المسلمين ، فأى غضاضة أو ضرر عليهم إذا كان النظام الداخلي في الإسلام يمنع الارتداد عنه ؟!

كما أن حرية الرأي والتعبير مكفولة في الإسلام ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، فهذه الآية تقرير لهذه الحرية ، ولا خلاف في ذلك بين علماء الإسلام ، ولم ينكر أحد من الصحابة اختلاف الآراء ، حيث نزل تشريع الشورى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] ، ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وتشريع

الشورى إقراراً لحرية الرأي . وكذلك كان الأمر بعد عهد الصحابة ، فلم ينكر أحد تغير الآراء والمعارضة ، ولو خالف ذلك رأي جمهور العلماء ، ثم استمر الخلاف بين المسلمين في الماضي والحاضر بسبب حرية الاجتهاد بشرط توافر ملكة الاجتهاد وضوابطه وشروطه البديهية والمرعية في كل اختصاص علمي .

لكن اقتناع المسلم بما يدمر العقيدة الإسلامية كالفكر الماركسي العلماني أو اللاديني ، أو القول بالإباحية في الفكر الغربي ، أو بإعلان رأي علمي يخالف قطعي القرآن الكريم يكون مرفوضاً غير مقبول ، لأن الإسلام دين الله تعالى ، وليس له صبغة بشرية .

وحرية انتقال غير المسلم من دين إلى آخر لا مانع منه ، ولا يتدخل المسلمون في شأن فاعله ، خلافاً لما كانت تفعل محاكم التفتيش في أوروبا من ذبح أو قتل المخالف في العقيدة ، وما ارتكبه الإسبان في تخيير المسلم إما بالتنصير وإما بالقتل .

إن في الممارسة الفعلية لدى الغرب تناقضاً ، فحرية التنصير في إفريقيا وأندونيسيا قائمة ، ويتنصر من المسلمين في العام (١٦٠٠٠) شخصاً ، أما مشكلة جنوب السودان وحماية المتمردين بقيادة قرنق والحرص على ترويح النصرانية ، فلا يعترضون عليها ، وإنما على العكس يمدونهم بمختلف أنواع الإمداد المادية والمعنوية . ويقر الغربيون التحرك اليهودي في جميع الميادين ، وتقطع أوروبا الآن علاقتها بالنمسا حرصاً على النفوذ اليهودي الإعلامي والمصالح اليهودية ، ولا يوافقون على التحرك البوذي مثلاً .

ويصرخ الغرب لنصرة قضاياه ، ويرسلون البعثات التبشيرية إلى كل البلاد وفي كل مكان ، ويمنع المسلمون في الداخل من أسلمة

المجتمع ومن تطبيق الشريعة ، ويلاحق بعض دعاة الإسلام في أوروبا وكندا وأمريكا .

٣- المادة ٢٥ التي تقر بثبوت النسب من غير طريق شرعي ، وترعى اللقيط وولد الزنى ، أما النظرة الإسلامية فلا تمنع من رعاية اللقطاء وأولاد الزنى وتربيتهم والإحسان إليهم ، إذ لا ذنب لهم ، ولكن الإسلام لا يجيز ثبوت النسب من رابطة غير شرعية ، لأن الزواج في الغرب مجرد متعة ، أما في الإسلام فهو عون شريف على إكمال شطر الدين ، ومن أجل الحفاظ على تكاثر النوع الإنساني ، فلا يبيح مثلاً الشذوذ الجنسي .

هذه هي المواد التي يتحفظ عليها المسلمون ، فلا يوافقون عليها ، لقناعتهم بأضدادها ، وحرصهم على نقاوة المجتمع ، وطهارة الأعراس ، وتقديس حرمة الإسلام ، وما عدا هذه المواد من ميثاق حقوق الإنسان يقره الإسلام ويدعو إليه ، مثل حرية التعبير والرأي والمساواة بين الناس من غير اعتبار العنصر والجنس واللون ، وحق التربية والتعلم والتعليم ، وحق الحياة والعيش الكريم ، وحق العمل والتنقل ، والتجنس ، وتكوين الدولة وإدارة شؤونها وتقلد الوظائف ، ومراعاة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

وكذلك القصاص وتقرير الحدود والعقوبات المقدره وغير المقدره (التعازير) لا تنافي حقوق الإنسان ، وإنما هي لصيانة مصلحة الأمة والجماعة ، والمصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة ، والمهم هو توفير الأمن والأمان الذي تفخر به المجتمعات الإسلامية ، على عكس الأحوال في أوروبا وأمريكا .

الخلاصة

إن حقوق الإنسان في شرعة الأمم المتحدة ذات صبغة مادية ، لم تتعرض للجانب الروحي ولا الأخلاقي ، وهو تعبير عن الفشل البشري ، وكان المهم لدى الغربيين هو الشعار والاعتبارات النظرية لا العملية .

أما حقوق الإنسان في الإسلام فهي جزء من العقيدة والسلوك ، والحقوق يجب أن تقابلها واجبات ، والحقوق في الإسلام منحة من الله لا تقابل في الغالب بواجبات ، وكل شرائع الإسلام هي تذكير بالمصلحة الحقيقية للجماعة ، وتذكير أيضاً بحقوق الإنسان الضعيف ، ولقد تحقق في الإسلام التوازن بين الحقوق والواجبات ، ووصلنا إلى الصراط المستقيم ، وكان حرص الإسلام على أداء الحقوق ورعاية الواجبات إنما هو من أجل تحقيق التوازن والمساواة والعدل بين الناس ، والمسلمون يعبدون إلهاً واحداً ، فهم متساوون ، وحقوق الإنسان في الإسلام مطبقة علمياً وواقعياً ، ولها قداسة بالمعيار الحقيقي ، فمثلاً يقال : الأنترنيت حرية ، والواقع هو مفسدة ، والحقوق الإنسانية العالمية في غير شرعة الإسلام مجرد خيال ، ولقد انتهكت وتنتهك حقوق الإنسان في كل زمان ومكان ، بدليل ارتكاب جرائم القتل والمطاردة والتشريد للضعفاء ، وأما جرائم اليهودية العنصرية والوحشية فمعروفة .